

# حزب الله يتوجّه شرقاً نحو سورية

تقرير الشرق الأوسط رقم 153 | 27 أيار/مايو 2014  
ترجمة من الإنجليزية

## جدول المحتويات

i	..... الملخص التنفيذي
1	..... I. مقدمة
3	..... II. منظور حزب الله
3	..... أ. رواية حزب الله
5	..... ب. أعمق فأعمق
6	..... ج. تقييم المكاسب والخسائر
8	..... د. آراء الطائفة الشيعية
11	..... III. تحديات المستقبل
11	..... أ. عمق استراتيجي واجتماعي معرّض للخطر
15	..... ب. تحوّل حزب الله: ما مستقبل المقاومة؟
16	..... ج. اعتداد بالقوة؟
18	..... IV. الخلاصة
	الملاحق
19	..... اخ. أرطة الحدود اللبنانية سدمورية

## المخلص التنفيذي

لقد استثمر حزب الله كل طاقاته في الدفاع عن الرئيس السوري بشار الأسد. وقد أظهر أنه سيدعم النظام السوري بكل الوسائل الضرورية، رغم الشكوك في قدرة هذا الأخير على تحقيق نصر حاسم وبصرف النظر عن مخاطرة حزب الله بمكانته الأخلاقية وجاذبيته العابرة للطوائف. مع انغماسه بعمق أكبر في الحرب الأهلية السورية، والتي يبدو أنها ستستمر لسنوات، فإن حزب الله يجد نفسه منشغلاً على نحو متزايد عن محور تركيزه الأصلي المتمثل في محاربة إسرائيل ومخاطراً بإحداث إعادة تشكيل عميقة لهويته.

كانت الأهداف العسكرية الأصلية لحزب الله في سورية واضحة، وتتمثل في إنقاذ نظام يرى فيه حليفاً محورياً وإبعاد الجهاديين السنة عن حدوده وأحيائه. لقد كانت مساهمته بالغة الأهمية؛ فقد تمكنت قواته من إعادة الزخم المتلاشي للنظام ومكنته من تحقيق التقدم النسبي الذي يتمتع به اليوم. لقد عززت محاربتة للمعارضة السورية، التي يُشخصها بتعابير طائفية حادة، من قاعدة دعمه. غير أن الأكلاف بعيدة المدى - بالنسبة لحزب الله والمنطقة - والمتمثلة في الانخراط في حرب طائفية صفرية، تعني أن الثمن الذي سيدفعه مقابل ذلك قد يكون جسيماً بقدر أهمية المكاسب قصيرة الأمد التي يحققها.

رحبّ الحزب بانتفاضات "الربيع العربي" الموجه ضد أعدائه وخصومه. لكنه وضع حداً عند سورية؛ ومع تراخي قبضة بشار الأسد، بات يرى بقاءه هو مرتبطاً ببقاء حليفه. كان سقوط الأسد سيخرمه من حليف محوري ومن ممر مهم للتزوّد بالأسلحة من إيران. إضافة إلى ذلك، ومع تحوّل الانتفاضة السورية إلى حرب إقليمية بالوكالة، فإن سقوط النظام كان سيؤدي إلى تغيير في التوازن الإقليمي يصب في غير مصلحته، أخيراً، مع ظهور تنظيمات مرتبطة بالقاعدة (أو انفصلت عنها) داخل صفوف المجموعات المسلحة، فإن الحزب الشيعي، كجمهورية، بات يرى في الحرب الأهلية في سورية حرباً وجودية.

ظهرت مزاعم بمشاركة حزب الله العسكرية في سورية في أواسط عام 2012، بعد تحقيق مجموعات المعارضة المسلحة مكاسب مهمة جنوب وشرق سورية؛ وإحاطتها بدمشق، بشكل جعل النظام في خطر محقق؛ وسيطرتها على مناطق حدودية رئيسية مكنتها من التواصل مع الجيوب السنّية على الجانب اللبناني. بعد شهور من ذلك، لعب الحزب، في أيار/مايو 2013 وبشكل علني، دوراً قيادياً في إخراج الجماعات المسلحة من بلدة القصور الحدودية. عزز سقوط البلدة من قوة النظام وشجّع الحزب على توسيع معركته إلى جبال القلمون وما وراءها.

دفع التدخل العسكري الكامل حزب الله إلى منطقة مجهولة المعالم. من منظوره، لم يكن لديه خيار آخر؛ فقد أكدت الأحداث اللاحقة للحزب بأنه اتخذ القرار الصائب. لقد كانت حملته العسكرية ناجحة، وعززت موقع الأسد؛ ورغم مقتل عشرات الشيعة في لبنان في موجة من التفجيرات الانتحارية غير المسبوقة، على نمط التفجيرات التي تنفذها القاعدة، منذ معركة القصور، فإن الحزب مقتنع بأن عدداً أكبر كان سيقتل لو إنه لم يُبعد المجموعات المسلحة السورية عن الحدود اللبنانية. كما كانت الهجمات الانتقامية مفيدة للحزب من حيث إنها عززت قاعدته الشعبية من خلال التأكيد على أن المجموعات المسلحة السورية ما هي إلا مجموعات من المتطرفين السنة الذين كانوا دائماً يستهدفون شيعة لبنان.

لكن على المدى البعيد، فإن انخراط حزب الله في سورية يشكّل تهديداً للحزب، كما أنه إشكالي بالنسبة للبنان والعالم العربي الأوسع. لقد عمّق هذا التدخل الانقسام الطائفي الإقليمي، وغذى التطرف نفسه الذي يرمي الحزب إلى محاربتة وأدى إلى تلاشي شرعيته بين شرائح من المجتمع كانت تدعمه في السابق. من خلال تصوير معركته على أنها هجوم استباقي على التكفيريين، فإن حزب الله صبغ جميع شرائح المعارضة، وفي الواقع جميع السنة، بفرشاة التطرف السوداء. لقد بالغ في توصيف مذهبية المعارضة السورية كما خصومه المحليين، وبالتالي فاقم من هذه المذهبية. حزب الله، الذي كان يحظى باحترام واسع لدى جميع شرائح الطيف السياسي والطائفي، بات يُشار إليه على نحو متكرر الآن بـ "حزب الشيطان". لقد تضاعفت الحاضنة الشعبية التي كان يعتبرها الحزب بمثابة عمق استراتيجي، وكذلك السمعة التي كان حققها لنزاهته الأخلاقية. تكمن المفارقة هنا في أن تعزيز حزب الله لجهته الشرقية قد جعله أكثر هشاشة.

هذه التطورات لا تتبشّر بالخير بالنسبة للبنان، الذي يعتمد رفاهه على العلاقات بين الكتل السياسية والمجموعات الطائفية فيه. لقد تم احتواء الصدمات المذهبية التي مرّت بها البلاد عام 2013 ومطلع عام 2014 تحت مظلة ما يعرف بـ "الخطة الأمنية"، إلا أن هذه الهدنة مؤقتة على الأرجح. مع شعور سنة لبنان بالإحباط، وحرص الشيعة على عدم خسارة المكاسب التي حققوها خلال العقود الماضية ووقوع المجموعات الأخرى بين الطرفين، فإن التصعيد الذي شهده هذا العام ما هو إلا مقدمة لما سيحدث إذا انهارت الاتفاقية الأمنية. في بلد

طالما اشتكى من الشلل السياسي، فإن غاية ما يأمل به كثيرون الآن بات استمرار هذا الركود، بوصفه أفضل السيناريوهات.

قد يرى بعض منتقدي حزب الله الإقليميين ومنتقديه الدوليين، المتحالفين مع خصومه، جانباً إيجابياً في هذه التطورات: أي غرق حزب الله فيما يبدو حرباً لا نهاية لها في سورية، وقتاله لعدو متطرف وعنيد، وانشغاله عن تركيزه التقليدي على إسرائيل. إلا أن الدوامة نفسها التي تجتذب الحزب تجتذب أيضاً أعداءه، دون أن يكون هناك مخرج محتمل لأي من الطرفين. كما أن هؤلاء النقاد لا يرحبون بانتشار الجهادية الشيعية التي تغذيها الحرب في سورية.

ما هو ضروري، ليس فقط من أجل لبنان، بل أيضاً من أجل المنطقة بأسرها - أي الإحجام عن الخطاب المذهبي وسحب جميع المقاتلين الأجانب من سورية وطردهم - من غير المحتمل أن يحدث. حزب الله يؤمن باستراتيجيته الحالية، وأعداؤه مصممون على محاربة ما يرون فيه قوة احتلال شيعية. طالما ظل الصراع في سورية ثقباً أسود، فإن حزب الله سيبقى عالقاً في نطاق جاذبية هذا الثقب، وهو ما سيحدث فيه تحوُّلاً لا يقل عن التحوُّل الذي سيحدثه انخراطه في الصراع برمته.

بيروت/بروكسل، 27 أيار/مايو 2014

## حزب الله اللبناني يتوجّه شرقاً نحو سورية

### I. مقدمة

فاجأ التدخل العسكري الكامل لحزب الله في سورية العديد من المراقبين من سائر أجزاء الطيف السياسي.<sup>1</sup> حتى في أيار/مايو 2012، قال مسؤول رفيع في حزب الله: "لم نقاتل، ولن نقاتل في سورية".<sup>2</sup> قبل انخراطه العلني في معركة القصر عام 2013، كان الحزب الشيعي ينتقد بشكل منتظم المجموعات اللبنانية السنية لقتالها نيابة عن المعارضة السورية ويدين تدفق الأسلحة والمقاتلين عبر الحدود بوصفه تهديداً لاستقرار لبنان.<sup>3</sup>

مع تصاعد الضغوط العسكرية على نظام الرئيس بشار الأسد طوال عام 2012، تطوّر دور حزب الله بشكل مستمر. ما بدأ كدعم سياسي لحكم كان حليفاً محورياً في المواجهات المتكررة للحزب مع إسرائيل تحول تدريجياً إلى مساعدة عسكرية.<sup>4</sup> بحلول أواسط عام 2012، ظهرت مزاعم (رغم أنها أنتت بشكل رئيسي من خصوم الحزب) بأن حزب الله كان يقدّم الدعم التقني واللوجستي لدمشق وأنه كان يساعد بعض التجمّعات الشيعية السورية على إنشاء ميليشيات للدفاع عن النفس.<sup>5</sup> مع تواتر التقارير التي تفيد بارتفاع عدد ضحايا حزب الله،<sup>6</sup> أقرّ الأمين العام للحزب، حسن نصر الله، في تشرين الأول/أكتوبر 2012 بأن الحزب كان يلعب دوراً في سورية. غير أنه أصرّ على أن الدور كان يقتصر على مساعدة الشيعة اللبنانيين الذين يعيشون على الجانب السوري من الحدود، في حماية قراهم وأسراهم من المجموعات المسلحة وأنكر الانخراط الأوسع: "حتى هذه اللحظة، لم نحارب في سورية والنظام لم يطلب منا ذلك".<sup>7</sup>

مهما كانت حقيقة هذه الادّعاءات والادّعاءات المضادة، فإن حزب الله عبر عتبة مهمة في العام التالي. تنامت الشائعات التي تفيد بأن الحزب كان يلعب دوراً رئيسياً على الجبهات في الربيع؛ وفي أيار/مايو 2013، اعترف علناً وللمرة الأولى بأنه يرسل مقاتليه إلى سورية، حيث قاد هجوماً على المجموعات السورية المسلحة في بلدة القصر الحدودية. في شباط/فبراير 2014، أرسل مقاتليه إلى بلدة بيروود، في جبال القلمون شمال دمشق. في حين حظيت معارك مثل بيروود والقصر بمعظم الانتباه، فإن الولايات المتحدة تزعم بأنها تتبعت نشر الحزب لقواته في سائر أنحاء البلاد، وخصوصاً في درعا، وحلب، وإدلب، إضافة إلى دمشق وضواحيها.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> كان هذا حال المعسكرين السياسيين المتخاصمين في لبنان: تحالف 14 آذار المدعوم من السعودية والغرب، الذي يقوده تيار المستقبل، وتحالف 8 آذار بقيادة حزب الله. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر - تشرين الثاني/نوفمبر 2013. مسؤول أمريكي رفيع قال، "أعترف بأننا لا نحن ولا أجهزتنا الاستخباراتية كنا نتخيل أن يرسل حزب الله الآلاف من مقاتليه إلى سورية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>2</sup> النشرة، 27 أيار/مايو 2012.

<sup>3</sup> "Nasrallah accuses March 14 of arming Syrian opposition", *The Daily Star*, 16 February 2012. أيضاً تقرير مجموعة الأزمات رقم 132، "توازن هش: لبنان والصراع في سورية"، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2012، ص. 13-16. <sup>4</sup> في أيار/مايو 2011، قال الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، "سقوط النظام السوري مصلحة إسرائيلية - أمريكية، تهدف إلى دفع سورية إلى توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل... وكحركة مقاومة ضد إسرائيل، علينا أن نتبنى موقفاً مسؤولاً وملتزمًا بأمن واستقرار سورية حكومة وشعباً". المنار، 25 أيار/مايو 2011. في آذار/مارس 2012 قال: "أهم الأسلحة التي حاربنا بها إسرائيل خلال حرب تموز/يوليو [2006] أنتت من سورية". المنار، 15 آذار/مارس 2012.

<sup>5</sup> الولايات المتحدة اتهمت حزب الله بتقديم "جملة من الأنشطة، بما في ذلك الدعم اللوجستي والعمليات للحكومة السورية في قمعها العنيف". "Iran and Hizbollah build militia networks", *The Washington Post*, 10 February 2013. "Hizbollah increases support for Syrian regime, U.S. and Lebanese officials say", *The Washington Post*, 26 September 2012; "Hizbollah role in Syria grows more evident", *The Daily Star*, 12 October 2012; "Hizbollah commander, fighters killed in Syria", *The Washington Post*, 2 October 2012; "Are Hizbollah's mysterious 'martyrs' dying in Syria?", *France 24*, 1 October 2012.

<sup>6</sup> انظر خطاب نصر الله على المنار، 11 تشرين الأول/أكتوبر 2012.

<sup>7</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع نشطاء سوريين، ومسؤولين أمريكيين، بيروت، واشنطن، تشرين الأول/أكتوبر - تشرين الثاني/نوفمبر 2013. دبلوماسي أمريكي رفيع قال، "لدينا الآن معلومات استخباراتية تفيد بأن حزب الله ومتطوعين عربيين يقاتلون في درعا وإدلب، وفي حلب وحولها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، تشرين الثاني/نوفمبر 2013. انظر أيضاً "4,000 Hizbollah fighters reach rebel-held Aleppo: FSA", *The Daily Star*, 6 June 2013; "FSA chief: After Qusayr, Hizbollah fighters reach Idlib and Aleppo", *Al-Arabiya*, 26 April 2013.

<sup>8</sup> بعد القصر، مقاتلو حزب الله يصلون إلى إدلب وحلب"، العربية، 26 نيسان/أبريل 2013.

إن النطاق الكامل لانخراط حزب الله في سورية غير واضح وقد يبقى كذلك. إلا أن الواضح هو الرسالة التي بعث بها الحزب الشيعي عندما عزى لنفسه الفضل في انتصار القصور: أي أنه لن يألو جهداً في دعم حليفه وهزيمة أولئك الذين يعتبرهم أعداء له. الانضمام إلى الحرب مهّد الطريق إلى مقاربة أكثر عدوانية من أي وقت مضى، ورفع بذلك من مخاطر الردود الانتقامية من قبل خصومه السوريين واللبنانيين.

## II. منظور حزب الله

كان الانخراط العسكري الفعال لحزب الله امتداداً منطقيّاً لدعمه الثابت للرئيس بشار الأسد منذ عام 2005. من منظوره، فإن التدخل أتى بوصفه "ضرورة استراتيجية" في تموز/يوليو 2012، عندما بدأ أن يقاء النظام كان في خطر؛ وكان إقناع جمهور حزب الله بأن المشاركة في الصراع في سورية كان "شراً لا بد منه" سهلاً نسبياً، ما يشير إلى التحضير الفعال.<sup>9</sup> أبرز الحزب التهديدات المتنامية التي تهدد رفاه الشيعة اللبنانيين وسلامتهم من قبل المقاتلين المتطرفين السنّة عبر الحدود، وبالتالي الحاجة إلى الانتقال من الدعم المعنوي إلى الدعم العسكري. لقيت الرسالة التي تفيد بأن المجموعات المسلحة السنّة في سورية كانت تشكل تهديداً وجودياً ليس فقط لما يسمى محور المقاومة ضد إسرائيل (حزب الله، وإيران، والنظام السوري)،<sup>10</sup> بل أيضاً للشيعة لبنان، لقيت صدى لدى أنصار الحزب.

### أ. رواية حزب الله

لقد أبقّت رواية حزب الله حول الصراع الطائفة الشيعية إلى جانبه، رغم أنها أسهمت أيضاً بمقاومة مخاطر الطائفية، وحوّلت تحذيرات الحزب القائمة من المتطرفين السنّة المتعطشين للدماء إلى نوع من نبوءة تحقق نفسها. لم يعارض حزب الله الانتفاضات العربية عندما بدأت عام 2011. عندما اكتسحت الاحتجاجات التي انطلقت شرارتها في تونس، مصر، وليبيا والبحرين، رَحّب بها حزب الله بوصفها "ثورات تحرر".<sup>11</sup> لكن عندما وصلت الاضطرابات إلى سورية في آذار/مارس 2011، تبوّى الحزب موقفاً مختلفاً. ميّز نصر الله حالة سورية بالتأكيد على دور دمشق الرئيسي في محور المقاومة - في محاولة لتعزيز شرعية النظام المهالكة بتصوير الاضطرابات على أنها جزء من حملة أوسع من قبل أنصار إسرائيل وليس كإنتفاضة شعبية.<sup>12</sup>

في تموز/يوليو 2012، قال نصر الله إن الولايات المتحدة كانت قد "استغلت المطالب المحقّة للشعب السوري، ومنعت الحوار وحوّلت سورية إلى منطقة حرب لأن الهدف هو تدمير وتمزيق سورية، كما فعلوا في العراق".<sup>13</sup> بعد عام من ذلك، طوّر هذه المقولة أكثر قائلاً:

كل الحرب على بشار الأسد هي لأنه يدعم المقاومة ... سورية هي العمود الفقري للمقاومة ... ولا تستطيع المقاومة أن تصمد إذا انكسرت [سورية] ... لقد بدأت مرحلة جديدة من دعم وحماية المقاومة ولبنان، وهذه مسؤولية الجميع.<sup>14</sup>

تدرجياً، وفي خطاب حزب الله، بات دعم نظام الأسد يرقى إلى اعتباره محافظة على الحزب، وبالتالي، على رفاه الشيعة أنفسهم. رصّنت الطائفة صفوفها؛ وحتى أولئك، وأعدادهم كبيرة، الذين كانوا قد انتقدوا النظام، بدأوا برؤية سقوطه على أنه تهديد وجودي. أحد هؤلاء المنقذين السابقين - وهو صحفي كان قد عبّر عن استيائه من حزب الله - قارن الأحداث بحرب عام 2006، التي قصفت خلالها إسرائيل مناطق الشيعة في لبنان:

من هم داعمو المعارضة السورية؟ إنهم تحالف 14 آذار [المدعوم من السعودية والغرب]، والولايات المتحدة وفرنسا، والسعودية. جميعهم ينتمون إلى المعسكر الذي تأمر ضدنا عام 2006. حتى لو لم أكن أحب الأسد، فإنني لا أجد خياراً سوى دعم نظامه.<sup>15</sup>

وبالمقابل فإن أعداء الأسد ساعدوا نصر الله على إثبات حجّته بربط الإطاحة بالرئيس السوري بسقوط حزب الله.<sup>16</sup>

<sup>9</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013.

<sup>10</sup> في السابق كانت حركة حماس الفلسطينية جزءاً من محور المقاومة، إلا أن دعمها للمعارضة السورية أبعدها عن حلفائها السابقين. انظر أدناه وأيضاً تقرير مجموعة الأزمات رقم 149، "الجولة القادمة في غزة"، 25 آذار/مارس 2014، ص. 4، 9.

<sup>11</sup> انظر خطاب نصر الله على المنار 19 آذار/مارس 2011. خاطب المصريين الذين تظاهروا ضد الرئيس الأسبق حسني مبارك قائلاً: "إنكم تخوضون حرب الكرامة العربية اليوم، بأصواتكم، ودمانكم وصمودكم، تستعيدون كرامة الشعب العربي؛ الكرامة التي أنزلها بعض قادة العالم العربي لعقود". برس تي في، 7 شباط/فبراير 2011.

<sup>12</sup> قال نصر الله: "لم تكن سورية ممراً للمقاومة وحسب، بل كانت أيضاً داعماً عسكرياً حقيقياً للمقاومة. على سبيل المثال، فإن أهم الصواريخ التي كانت تسقط على حيفا ووسط إسرائيل [عام 2006] كانت صواريخ سورية، قدمتها سورية للمقاومة". 18، Naharnet، July 2012.

<sup>13</sup> Naharnet، 18 July 2012.

<sup>14</sup> The Daily Star، 25 May 2013.

<sup>15</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

أدت استراتيجية الحزب إلى تعبئة وحشد قواعده، لكن ليس دون كلفة. لقد عرّض ذلك للخطر العلاقات مع شرائح هامة من المجتمع السوري - خصوصاً السنة من أفراد الطبقتين الدنيا والوسطى - التي كانت قد دعمت حزب الله، كما أدت إلى استعداء شرائح لبنانية أخرى رأت في موقفه دعماً لنظام وحشي.<sup>17</sup>

كان تصوير الحزب، الذي يخدم مصلحته، للمعارضة على أنها واقعة تحت سيطرة متطرفين سنة يكرهون الشيعة ينبع جزئياً من عدم فهمه لسورية خارج دوائر النظام. كما كتبت مجموعة الأزمات في تشرين الثاني/نوفمبر 2012، فإن "مسؤولي حزب الله لم تكن لديهم معرفة عميقة بالمجتمع السوري ولا تربطهم به علاقات وثيقة، بل كانوا يركزون بدلاً من ذلك على التعاون الأمني والسياسي مع النظام".<sup>18</sup> البعد النسبي للحزب سهل عليه صياغة رواية متجنزة في رؤيته للعالم وتستند إلى مصالحه الخاصة، وليس إلى فهم دقيق للطبيعة المعقدة للمعارضة.

كلما تعمق انخراط الحزب في سورية، كلما أصبحت التهديدات أخطر وأكثر مباشرة - وقد تحقّق العديد منها - وهي التي كان قد استحضرها كتبرير لتدخله. بدأ حزب الله بالحديث عن حاجة القرويين الشيعة على الجانب السوري من الحدود للدفاع عن أنفسهم؛<sup>19</sup> بعد ذلك، أبرز ضرورة حماية المقامات الشيعية؛<sup>20</sup> وفي المحصلة، فإنه دعا إلى حرب وقائية ضد التكفيريين،<sup>21</sup> وهو المصطلح الذي يستعمله للإشارة إلى الجهاديين السنة، مستحضراً بذلك ذكريات عن مذابح القاعدة للشيعة في العراق:

نحن نعتبر أن سيطرة هذه المجموعات على سورية أو على مناطق سورية محددة، خصوصاً تلك القريبة من الحدود اللبنانية، تشكل خطراً كبيراً على لبنان ... [إنها] خطر كبير على لبنان، والشعب اللبناني، والدولة اللبنانية والتعايش في لبنان ... على المسلمين والمسيحيين وعلى السنة أولاً [حيث ينزع التكفيريون إلى التحول ضد جماعتهم]. هل تريدون الدليل؟ انظروا إلى العراق.<sup>22</sup>

قدّم الحزب تدخله في سورية بوصفه وسيلة لمنع انتشار الجهاديين إلى لبنان: "لو لم نقاتل في سورية، لكننا نقاتل الآن في لبنان".<sup>23</sup> عندما تصاعدت الهجمات العنيفة ضد حزب الله والطائفة الشيعية،<sup>24</sup> لم تُعتبر حصيلة لانضمام الحزب إلى القتال في سورية، بل دليلاً على حكمة قيامه بذلك، ومجرد مقدمة لحمّام الدم الأكبر الذي كان سيعاني منه لبنان لو لم ينقل حزب الله، في إجراء استباقي، المعركة إلى أرض عدوه. عبّر نصر الله عن

<sup>16</sup> مسؤول رفيع في تيار المستقبل قال، "إن الثورة السورية أفضل شيء يمكن أن يحدث للبنان. المسألة مسألة وقت قبل أن تؤدي إلى إضعاف حزب الله وإجباره على التخلي عن ترسانته". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2011. تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 20 - 21؛ "Barak says Assad's departure 'major blow' to"، *The New York Times*, 7 February 2012. يبدو مسؤولو حزب الله مقتنعين بأن دعم النظام لحزبهم كان دافعاً رئيسياً للإطاحة به: "لو توقف الأسد عن دعم حزب الله اليوم، لن يطالب أحد بتغيير النظام. الهدف النهائي للحرب على سورية هو تحطيم حزب الله وإيران". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013.

<sup>17</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع نشطاء وصحفيين سوريين، بيروت، طرابلس، عكار، أيلول/سبتمبر - كانون الأول/ديسمبر 2011.

<sup>18</sup> انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق، ص. 10.

<sup>19</sup> قال نصر الله، "هناك أكثر من 20 قرية ومزرعة واقعة داخل سورية، شمال الحدود مع لبنان، وهي تضم حوالي 30,000 لبناني، العديد منهم شيعة وأعضاء في حزب الله ... اتخذ سكان هذه البلدات القرار بالبقاء والدفاع عن أنفسهم ضد المجموعات المسلحة [السورية] ولم يخطرطوا في المعارك بين النظام والمعارضة". مقتبس في *The Christian Science Monitor*, 15 October 2012.

<sup>20</sup> في دمشق، كان مقام السيدة زينب، ابنة علي وحفيدة النبي محمد، مقصداً يحظى بشعبية خاصة لدى الشيعة من لبنان والمنطقة بأسرها. قدم حزب الله الدفاع عن المقامات بوصفه إجراء احترازياً لمنع تصاعد الصراع الطائفي. على حد تعبير نصر الله، "كان تدمير مقام السيدة زينب سيؤدي إلى حرب طائفية في المنطقة. أرسلنا نحو 40 إلى 50 مقاتلاً لحمايته". مقابلة نصره الله في 3 كانون الأول/ديسمبر على OTV، "Now", 3 December 2013. أحد مسؤولي الحزب قال، "الدفاع عن مقام السيدة زينب، ساعد حزب الله في منع شقاق أوسع وأكثر خطورة واقتتال بين السنة والشيعة. المقامات مهمة في الوجدان الشيعي، ولا ينبغي التقليل من أهمية الأثر الذي سيحدثه تدميرها. ثمة مثال صارخ في المذبحة التي جرت في العراق والتي أعقبت [عام 2006] تدمير المقامات في سامراء". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013.

<sup>21</sup> الإسلاميون الذين يعتبرون الآخرين كفاراً.

<sup>22</sup> المنار، 25 أيار/مايو 2013.

<sup>23</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>24</sup> منذ أيار/مايو 2013، استهدفت نقاط تفتيش وقوافل حزب الله والأحياء ذات الأغلبية الشيعية بالصواريخ، والسيارات المفخخة والكمائن، وأدت إلى قتل عشرات الشيعة. في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 2013، ضرب هجوم انتحاري السفارة الإيرانية في بيروت، وأدى إلى مقتل 25 شخصاً، بمن فيهم دبلوماسي. "الصواريخ تضرب ضاحية بيروت"، و "إدانة 17 شخصاً بإطلاق الصواريخ على بعثا، والضاحية"، *Now*, 26 May, 28 October 2013؛ "مقتل العشرات بعد انفجار الضاحية - الصليب الأحمر اللبناني"، LBCI، 15 آب/أغسطس 2013؛ المنار، 21 كانون الثاني/يناير 2013؛ والأخبار، 2 شباط/فبراير 2014.



ذلك صراحة بالقول: "إذا انسحبنا من سورية، فإن القصور، والقلمون والحدود اللبنانية ستسقط في أيدي الجماعات المسلحة. وستستهدف السيارات المفخخة لبنان بأسره، وليس الضاحية وحسب".<sup>25</sup>

تعكس اللغة التي استعملها نصر الله لوصف الصراع في سورية لغة أعدائه. في حين أنها تستحضر مشهد التكفيريين المتعشقين للدم لتبرير أفعال الحزب، فإن أعداءه يحشدون جماهيرهم بتصوير حزب الله على أنه حزب طائفي، ومتوحش وغير إنساني.<sup>26</sup> وبالفعل، أثبتت شتيمة التكفيريين أنها سلاح ذو حدين بالنسبة لحزب الله، حيث لم تقض فقط إلى حشد أنصاره، بل كانت أيضاً جزءاً من الديناميكية التصعيدية لتحفيز خصومه على مفاجمة الطائفية في أوساط المعارضة المسلحة السورية. بحلول عام 2013، كان مثل ذلك الخطاب قد أصبح الوسيلة الرئيسية التي شرعن كلا الطرفين أفعالهما من خلالها؛ حيث سعى كل طرف إلى شيطنة خصومه وتعبئة قواعده الشعبية وسط تصاعد كبير للعنف.

### ب. أعمق فأعمق

يعكس الانخراط العسكري لحزب الله بشكل رئيسي تغيير تقييمه لميزان القوى في سورية. من البداية، كانت أولويتهم ضمان بقاء النظام، الذي، واعتباراً من أواسط عام 2012، لم يعد يبدو مؤكداً. إخفاق دمشق في احتواء انتفاضتها - وفي الواقع استعمالها لتكتيكات غذت تلك الانتفاضة - غيرت افتراضات حزب الله الأولية بأن النظام سيستعيد بسرعة سيطرته على البلاد ويعزل جيوب المعارضة.<sup>27</sup> مع اقتراب الجماعات المسلحة من العاصمة، وسيطرتها على مناطق في الشمال، وصدّها لأكثر من عام الهجمات المستمرة من قبل النظام لإخراجها من حمص ومحيطها، قال مسؤول رفيع في حزب الله:

بعد تفجير تموز/يوليو 2012 [الذي أدى إلى مصرع أربعة مسؤولين أمنيين في قلب دمشق] والهجوم الذي شنته بعد ذلك المجموعات المسلحة على دمشق، بدأ النظام بالتراجع. واجه احتمالاً حقيقياً جداً بخسارة العاصمة، ما كان يعني سقوطه.<sup>28</sup>

علاوة على ذلك، فإن تدفق المقاتلين الأجانب بحلول عام 2013 للانضمام إلى المعارضة المسلحة وما نتج عنه من تصاعد المشاعر المذهبية بات أمراً مقلقاً.<sup>29</sup> سيطر الإسلاميون المتشددون على مناطق مهمة جداً على الحدود اللبنانية، خصوصاً مركز تزود المجموعات المسلحة في القصور والقلمون. هددوا بقطع معقل حزب الله في الهرمل شمال شرق لبنان عن عمقه السوري وشكلوا إندازاً لا يقل خطورة بتحقيق التواصل بين المجموعات المسلحة السورية مع قوى متعاطفة معها في شمال لبنان وبلدة عرسال في شرقه. في هذه الأثناء، جعل ازدياد قوة الإسلاميين السنة في سورية نظراءهم اللبنانيين أكثر جراءة؛<sup>30</sup> وبت التعاون عبر الحدود يشكل تهديداً حقيقياً على المدى البعيد لحزب الله.

ما عقّد وضع الحزب أكثر كان الرعاية القطرية والسعودية للمعارضة. رفع الانخراط الخليجي الرهانات بالنسبة لإيران وحزب الله على حد سواء، حيث إن سقوط النظام السوري كان يعني خسارتهما ليس فقط لحليف استراتيجي بل أيضاً لتغيير ميزان القوى الإقليمي لغير صالحهما. بحلول نهاية عام 2013، باتت الرعاية الإقليمية للصراع في سورية عالقون في حلقة تعزز نفسها من المواجهات. على حد تعبير أحد مسؤولي حزب الله:

مع تزايد أقلمة وتدويل الصراع في سورية، لم يعد حزب الله يستطيع الوقوف مكتوف اليدين. شكّلت مشاركة 14 آذار، والإسلاميين، والسعودية، وتركيا، وقطر، والولايات المتحدة وفرنسا تهديداً مباشراً لنا

<sup>25</sup> "مقابلة نصر الله في 3 كانون الأول/ديسمبر على OTV"، مرجع سابق. الضاحية تشير إلى الضاحية الجنوبية لبيروت، التي تعتبر معقل حزب الله وحيث يتمتع بدعم شعبي واسع.

<sup>26</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع نشطاء ولاجئين سوريين، ومع مشايخ وسلفيين لبنانيين، بيروت، طرابلس، صيدا، عرسال، عكار، 2011-2013.

<sup>27</sup> تقرير مجموعة الأزمات رقم 128، "الصراع وتحولاته في سورية"، 1 آب/أغسطس 2012. في كانون الأول/ديسمبر 2011، قال مسؤول رفيع في حزب الله، "لا يزال النظام السوري قوياً. سيعزز الأسد من قوته. سيستعيد السيطرة على سورية حتى لو ظلت بعض جيوب انعدام الأمن في المناطق النائية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2011.

<sup>28</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2012.

<sup>29</sup> يصعب الحصول على تقديرات دقيقة لعدد المقاتلين الأجانب في سورية. المركز الدولي لدراسة التطرف قدر أنه، بحلول كانون الأول/ديسمبر 2013، كان هناك حوالي 11,000 مقاتل من أكثر من 70 بلداً، عربياً وأوروبياً بشكل خاص، انضموا إلى صفوف المجموعات المسلحة. -www.icsr.info/2013/12/icsr-insight-11000-foreign-fighters-syria-steep-rise-among-western-europeans/

<sup>30</sup> انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، مرجع سابق؛ وتقرير مجموعة الأزمات رقم 141، "لا عزاء في القرب: السوريون في لبنان"، 13 أيار/مايو 2013.

ولإيران. لم يكن من شأن ذلك أن يؤدي إلى سقوط الأسد وحسب، بل كان من شأنه أن يضمن أن أي نظام سوري مستقبلي سيكون خاضعاً لنفوذ قوى معادية بعمق لمحور المقاومة.<sup>31</sup>

صحفي تربطه علاقات وثيقة بالحزب ذهب أبعد من ذلك قائلاً:

لو سقط نظام الأسد، لكان حزب الله هو التالي. كان سينكشف تماماً، وسيصبح أعزلاً في مواجهة خصومه اللبنانيين وداعميهم الإقليميين، وأيضاً في مواجهة إسرائيل حيث إنه كان سيفقد الممر الأساسي لتزوّده بالسلاح. وعبّر الحدود، كان سيواجه قوة معادية تنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليه.<sup>32</sup>

### ج. تقييم المكاسب والخسائر

عسكرياً، كانت هجمات حزب الله في ضواحي دمشق،<sup>33</sup> والقصير في حزيران/يونيو 2013 وجبال القلمون في آذار/مارس 2014 ناجحة. كما حققت الحملات، خصوصاً في القصير، مكاسب رمزية ونفسية، رغم الخسائر البشرية الكبيرة.<sup>34</sup> ورغم أن حزب الله قد يكون بالغ في القيمة الاستراتيجية للقصير،<sup>35</sup> فإن الانتصار حقق للنظام إنجازاً كبيراً كان بحاجة ماسة له. مسؤول رفيع في حزب الله زعم، بشكل مبرر إلى حد ما: "دخلنا إلى القصير أدى إلى تعزيز كبير لمعنويات قوات النظام".<sup>36</sup>

في لبنان، أعقب الانتصار احتفالات في الشوارع.<sup>37</sup> حسّن الهجوم صورة الحزب ومصداقيته، وخفف من حدة الشكوك في أوساط قاعدته الشعبية حول حكمة خيارات حزب الله وقدرة الأسد على الصمود بالنسبة لمعظم الشيعة، حيث أن القصير أثبتت ليس فقط أنهم كانوا ينتصرون في المعارك بل إنهم كانوا على المسار الاستراتيجي الصحيح أيضاً. أحد أنصار حزب الله قال، "عندما بدأ النظام السوري ضعيفاً، ساورتني الشكوك. لكن، مرة أخرى، لم يظللنا حسن نصر الله. تبين أن كل ما قاله صحيح. النصر الذي وعد به، تماماً كما في المرة الماضية [في حرب عام 2006 ضد إسرائيل]، أصبح واقعاً".<sup>38</sup> أظهرت قيادة الحزب روحاً انتصارية عكسها أعضاؤه، إضافة إلى الصحفيين والمحليين المتعاطفين معه في وسائل الإعلام.<sup>39</sup>

حتى مع احتفال حزب الله بانتصار القصير، فإنه استمر بالتقليل من أهمية الاتهامات بأن قواته نشطة في حلب وأماكن أخرى في سورية. في كانون الأول/ديسمبر 2013، قال حسن نصر الله، "السوريون يقاتلون في سورية؛ نحن لا نقاتل نيابة عنهم. ليس لدينا مقاتلين في درعا، أو السويداء، أو الرقة، أو الحسكة. نحن موجودون فقط في دمشق، وحمص، والمناطق القريبة من الحدود ... في القلمون، الجيش السوري هو الذي

<sup>31</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>32</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>33</sup> طبقاً لنشطاء سوريين وأعضاء في الجماعات المسلحة السورية، فإن حزب الله أرسل مقاتلين إلى مقام السيدة زينب جنوب العاصمة منذ أواسط عام 2012. في الفترة 2013-2014، ساعد النظام على إعادة السيطرة على عدد من ضواحي دمشق. في كانون الأول/ديسمبر 2013، أقر نصر الله بوجود حزب الله في العاصمة. "مقابلة نصر الله في 3 كانون الأول/ديسمبر على OTV"، مرجع سابق؛ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع أعضاء في المجموعات السورية المسلحة ومع نشطاء سوريين، بيروت، 2013؛ Naharnet, 4 May 2014.

<sup>34</sup> من المستحيل الحصول على تقديرات دقيقة لخسائر حزب الله في سورية بسبب السرية التي يحيط بها عملياته. مرصد حقوق الإنسان السوري الذي يتخذ من المملكة المتحدة مقراً له قال إنه خسر 232 مقاتلاً في القصير. *The Christian Science Monitor*, 3 December 2013.

<sup>35</sup> يمكن القول إن المعارضة أيضاً، وفي محاولة للحصول على الدعم، فعلت ذلك أيضاً. لوصف معركة القصير، استعمل طرفا الصراع ووسائل الإعلام تعابير مثل "مغزاة لقواعد اللعبة"، و"أم المعارك"، و"مغزاة التوازن"، و"جبهة رئيسية" و"نقطة تحول"، وبالغوا في الأهمية الاستراتيجية لبلدة صغيرة هامشية؛ -8cca-48d6-ec95-23f50d5e-arabic/middleeast/2013/05/130524\_qusair\_syria.shtml; *al-Sharq al-90d73030af6f* www.dohainstitute.org/release/23f50d5e-arabic/middleeast/2013/05/130524\_qusair\_syria.shtml; *al-Sharq al-90d73030af6f* www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2013/05/130524\_qusair\_syria.shtml; *al-Sharq al-90d73030af6f* Aawsat, 24 April 2013; "U.S. and Israel lobby reel from H[i]zbollah al-Qusayr victory", *Foreign Policy Journal*, 8 June 2013.

<sup>36</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>37</sup> انظر "الضاحية تحتفل بسقوط القصير"، *Now*, 5 June 2013.

<sup>38</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013. في أيار/مايو 2013، قال نصر الله لائصار ومقاتلي الحزب، "لقد وعدتكم دائماً بالنصر، والآن أعدكم بالنصر مجدداً ... هذه المعركة [في سورية] معركتنا ... وأعدكم بالنصر"، المنار، 25 أيار/مايو 2013.

<sup>39</sup> ملاحظات لمجموعة الأزمات، ووسائل الإعلام، صفحات ووسائل الاتصال الاجتماعي، أيلول/سبتمبر 2013 - شباط/فبراير 2014. بعد لقائه في تشرين الأول/أكتوبر 2013، قال صحفي لبناني مقرب من الحزب، "الرئيس الأسد مرتاح جداً؛ لقد سجلت قواته تقدماً كبيراً. العالم بأسره بات يتبنى وجهة نظره الأولية بأن الحرب في سورية هي حرب ضد الإرهابيين". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013. ووسائل الإعلام التابعة لحزب الله أبرزت مكاسب الحزب وفي الوقت ذاته قللت من شأن مكاسب خصومه. انظر على سبيل المثال، "بيروت السورية على طريق النصر: حصري للمنار"، المنار، 15 آذار/مارس 2014؛ "معبّر كسب ... وهم النصر، التحرير"، المنار، 27 آذار/مارس 2014؛

يقاثل. مشاركة حزب الله في حدها الأدنى "40 طبقاً لمسؤولي الحزب، فإن هدفه كان تحسين موقع النظام، بحيث يستطيع أن يضمن أن نتيجة المفاوضات ستكون لصالحه؛<sup>41</sup> وقالوا إنه لا يعترض القتال نيابة عن النظام إلى ما لا نهاية.

رغم ذلك، فإن نجاحه في القصور أغرى حزب الله بالاندفاع أكثر، حيث قاتل في معارك شرسة للسيطرة على كامل الحدود السورية - اللبنانية. ولعب دوراً محورياً في هجوم النظام في شباط/فبراير - آذار/مارس 2014 في منطقة القلمون وقاد الحملة للسيطرة على بيروت، التي يُزعم أنها مركز السيارات المفخخة التي يتم تهريبها إلى لبنان.<sup>42</sup>

إذا كان الحزب لا يظهر اليوم نية في الحد من تدخله سورية، فإن ذلك يعود إلى حد بعيد إلى أن تبعات تدخله، حتى الآن على الأقل، تبدو محدودة. لقد كانت ردود الفعل المحلية محدودة نسبياً، في انعكاس لتصميم قاعدته وضعف خصومه، خصوصاً تحالف 14 آذار. الإسلاميون السنة في سائر أنحاء المنطقة انتابهم الغضب، إلا أن ذلك لم يُنتج رداً منسفاً و متماسكاً.<sup>43</sup> حتى الآن، كان الرد الأكثر أهمية لخصومه سلسلة غير مسبوقه من التفجيرات التي استهدفت الأحياء الشيعية، والسفارة الإيرانية والمركز الثقافي الإيراني في بيروت وأصول أخرى للحزب. رغم أنها حققت صدمة، إلا أنها تبدو غير منسقة ولم تؤثر لا في مقاربة حزب الله في سورية ولا في إدراكه لمخاطر ها. على العكس، فإنها أثبتت صحة خيار الحزب؛ حيث يجادل أعضاؤه أنه لو لم يتدخل، لعانى شيعية لبنان من فظاعات أسوأ، لأن عدوهم كان سيشعر بأنه قوي وأنه انتصر. مسؤول رفيع في حزب الله قال:

صحيح أن دعمنا للنظام حمل بعض التبعات السلبية. إلا أن ثمن عدم التدخل، بالمقارنة، كان سيكون أعلى بكثير. كنا سنحاصر من قبل أعدائنا، وصلتنا الجغرافية بإيران [من خلال سورية] كانت ستقطع. ما الثمن الذي دفعناه؟ بضع متفجرات؟ تخيل لو أننا لم نتدخل، كنا سنواجه عشرات المتفجرات، إضافة إلى وجود مقاتلي المعارضة في عرسال [البلدة اللبنانية] وليس في [البلدات السورية في] القلمون.<sup>44</sup>

ساعد تنامي المجموعات السنّية المتطرفة، مثل جبهة النصرة التابعة للقاعدة والفرع الذي انشق عنها، الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)،<sup>45</sup> في إثبات حجة نصر الله. هذه لم تجعل المواجهة مع المعارضة السورية تبدو محتومة وحسب، بل عززت أيضاً جاذبية النظام. مسؤول رفيع في حزب الله قال:

المعارضة - وخصوصاً جبهة النصرة وداعش - قدّمت هدية للنظام. ساعدت في عودة الناس إليه نتيجة لسلوكها. على سبيل المثال، فإن قبيلة شمّر [في الشمال الشرقي] ابتعدت عن المعارضة وبدأت تطلب أسلحة من النظام لمقاتلة جبهة النصرة وداعش. وينطبق الأمر ذاته على الأكراد.<sup>46</sup>

فإن انخراط حزب الله في سورية غدّى صعود هذه المجموعات الإسلامية،<sup>47</sup> إلا أن التهديد الجهادي، رغم ذلك، شوّه سمعة المعارضة السورية وقضيّتها؛ وأفقد الانتفاضة المسلحة ضد الأسد بريقها كانتفاضة شعبية.<sup>48</sup> وهذا صحيح خصوصاً في الغرب، لكنه صحيح أيضاً في أوساط العديد من المسيحيين اللبنانيين، الذين، كحليف حزب الله ميشيل عون، يقدّمون المتطرفين السوريين السنة باستمرار بوصفهم تهديداً لطائفهم.<sup>49</sup>

<sup>40</sup> "مقابلة نصر الله في 3 كانون الأول/ديسمبر على OTV"، مرجع سابق.

<sup>41</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، تشرين الثاني/نوفمبر 2013 ومع مسؤول رفيع، كانون الأول/ديسمبر 2013، وكلاهما في بيروت.

<sup>42</sup> الحياة، 18 شباط/فبراير 2014؛ *The Daily Star*, 18 March 2014.

<sup>43</sup> رداً على مشاركة حزب الله في سورية، دعا شيوخ سلفيون لبنانيون الشباب السنة للانضمام إلى الجهاد مع الجماعات المسلحة.

"الشباب السنة يتطوعون للجهاد ضد حزب الله"، العربية، 24 نيسان/أبريل 2013.

<sup>44</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>45</sup> في شباط/فبراير 2014، تتصلقت القاعدة من داعش وقطعت علاقاتها معها. بي بي سي، 3 شباط/فبراير 2014.

<sup>46</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>47</sup> أحد الصحفيين قال، "كلما استحضرت حزب الله المنظرين السنة، كلما أثار الغضب السنّي، وغدّى التطرف نفسه". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013. Naharnet, 25 October 2013.

<sup>48</sup> حتى أحد أعضاء المعارضة السورية الأقوياء قال، "أشعر بالحنن لما أصاب الثورة. لقد سرقت المجموعات الجهادية حلمنا. في بعض الأحيان أتساءل ما إذا كان علينا فقط أن نقبل بروية هذا النظام يبقى لينهي هذه الحرب البشعة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن، كانون الثاني/يناير 2013.

<sup>49</sup> القلق حيال المجموعات الجهادية حادّ بشكل خاص في الغرب، حيث انضم مئات المواطنين الأوروبيين، وبدرجة أقل الأمريكيين إلى القتال. *The Telegraph*, 19 January 2014; "Jihadists returning home to Europe from Syria pose new terror threat", *The Wall Street Journal*, 4 December 2013; "Al-Qaida faction in Syria contemplating US attack,

كما أن حزب الله لم يتعرّض لأي عقاب دبلوماسي مؤثّر. كان ردّ فعل دول الخليج والدول الأوروبية على تدخله سلبياً لكن محدوداً. دولة واحدة هي البحرين طبقت التهديد الذي قطعه مجلس التعاون الخليجي بتصنيف الحزب كمنظمة إرهابية، في حين أن الاتحاد الأوروبي وضع فقط جناحه العسكري له على قائمته - وهو إجراء، حتى لو طُبّق بشكل كامل، كان سيحدث أثراً ضئيلاً، بالنظر إلى الأصول والمصالح المحدودة التي يمتلكها حزب الله في تلك المنطقتين.<sup>50</sup> بدلاً من إلحاق الضرر بالحزب الشيعي، فإن رد فعل مجلس التعاون الخليجي أبرز انقساماته. وبالفعل فإن قطر - أحد الداعمين الرئيسيين للمعارضة السورية - استعادت جزئياً علاقاتها مع حزب الله بعد المساعدة للتوصل إلى صفقة لإطلاق سراح ثمانية حجاج شيعية اختطفتهم مجموعات سورية.<sup>51</sup>

رجحت كفة الوضع الإقليمي لصالح حزب الله أكثر في النصف الثاني من عام 2013. كانت الحماسة الأولية للتغيير الثوري في المنطقة العربية قد تلاشت ليحل محلها منظور رجعي، سعت بموجبه إلى العودة إلى ما قبل الوضع الراهن. عبّر الحزب عن تعاطفه مع الإطاحة بالرئيس المصري محمد مرسي في تموز/يوليو 2013 التي أزاحت نظاماً متعاطفاً مع المعارضة السورية.<sup>52</sup> رحّب وعبّر عن ارتياحه للاتفاق الذي وُقِع في أيلول/سبتمبر حول الأسلحة الكيميائية، الذي اعتبره مسؤول رفيع في حزب الله علامة على مصالحة بين الأسد والغرب: "أظهر النظام أنه يمكن أن يكون شريكاً موثقاً، على عكس المعارضة. من، على جانب المعارضة، يمكن أن يتعهد بشيء؟ ولهذا السبب أدركت الولايات المتحدة أن من مصلحتها التوصل إلى حل سياسي".<sup>53</sup>

#### د. آراء الطائفة الشيعية

تبقى مكانة حزب الله بين شيعية لبنان قوية، رغم الانتقادات، بما في ذلك داخل الطائفة نفسها.<sup>54</sup> منتقدو الحزب يحملونه مسؤولية تعريض السلم الهش في لبنان للخطر من أجل مصالحه الإقليمية الخاصة وخصوصاً دعم النظام السوري.<sup>55</sup> وبالفعل، يبدو أن استراتيجيات حزب الله جعلت الطائفة الشيعية التي يزعم أنه يحميها أكثر هشاشة. التفجيرات الانتحارية الأخيرة ذات الطابع "القاedi" غير مسبوقه. رغم الشحن المذهبي العميق خلال السنوات الماضية، فإن هذه التفجيرات بدأت فقط بعد تدخل حزب الله في سورية وإعلانه أنه يقاتل التكفيريين. منذ نيسان/أبريل 2014، تراجعت الهجمات بعد التوصل إلى اتفاق بين أطراف الطبقة السياسية اللبنانية مكن الجيش والقوى الأمنية من اعتقال عشرات المتطرفين المزعومين والانتشار في مناطق توتر مثل طرابلس وعرسال. إلا أن هذه الإجراءات الأمنية لا توضع حداً نهائياً للتهديد. على حد تعبير شيخ طرابلسي، "انقل العديد

"intelligence officials warn", *The Guardian*, 29 January 2014. "ثمة تهديد لمستقبلنا، لوجودنا، ولكل ما نؤمن به ولكل ما بُني عليه الشرق ولبنان [بشكل خاص]. لقد حذرنا دائماً من أن تهديد التطرف التكفيري ... حقيقي". "عون: اختطاف الرهائن يثبت التهديد التكفيري"، *Now*, 3 December 2013.

<sup>50</sup> "دول الخليج توافق على تصنيف حزب الله كمجموعة إرهابية"، العربية، 17 تموز/يوليو 2013. Naharnet, 10 September 2013. "البحرين أول بلد عربي يصنف حزب الله كمنظمة إرهابية" العربية، 9 نيسان/أبريل 2013. أما الاتحاد الأوروبي فإنه لم يتصرف حيال حزب الله كحزب سياسي. "EU resists H[i]zbollah ban but lists armed wing as terrorist group", *The Guardian*, 22 July 2013. التصور العام باستياء الاتحاد الأوروبي تبخّر عندما التقت سفيرته في لبنان بمسؤول حزب الله عن العلاقات الدولية. *The Daily Star*, 26 July 2013.

<sup>51</sup> *The Daily Star*, 17 December 2013.

<sup>52</sup> مسؤول رفيع قال: "منذ استولى [قائد الجيش ووزير الدفاع] السبيسي على الحكم، يعزّر أنصاره عن دعمهم للنظام السوري". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013. للمزيد حول الأحداث في مصر، انظر إحاطة مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا رقم 35، "السير في دوائر: خطورة المرحلة الانتقالية الثانية في مصر"، 7 آب/أغسطس 2013.

<sup>53</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013. صحفي تربطه علاقات وثيقة بالحزب قال، "تظهر السنوات القليلة الماضية أن حدوث تحوّل عربي نحو سورية ليس مستحيلاً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013. لقد قام الغرب وحلفاؤه بتحوّلات بشأن سورية من قبل. بعد ممارسة الضغط على دمشق لسنوات، بدأت فرنسا والسعودية بتطوير علاقاتها مع النظام عام 2008، بعد أن أدركت بشكل أساسي أنها لن تستطيع تحقيق أهدافها في المنطقة دون تعاونه. كما خففت الولايات المتحدة ضغوطها. إحاطة مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 27، "التحوّل مع دمشق؟ دروس التجربة الفرنسية"، 15 كانون الثاني/يناير 2009؛ والتقارير رقم 83، "الحوار مع سورية؟ العوائق والفرص أمام الولايات المتحدة"، 11 شباط/فبراير 2009؛ ورقم 92، إعادة خلط الأوراق؟ (1): استراتيجية سورية قيد التطور"، 14 كانون الأول/ديسمبر 2009؛ ورقم 93، إعادة خلط الأوراق؟ (2): أوراق سورية الجديدة"، 16 كانون الأول/ديسمبر 2009.

<sup>54</sup> أحد سكان الضاحية قال، "قتال حزب الله في سورية خطأ وغير مبرر. أفعاله تجعلنا ندفع ثمناً باهظاً مقابل لا شيء". أحد رجال الدين الشيعية المعارضين لحزب الله قال، "أنا استقبل أشخاصاً شيعياً بشكل منظم يتدمرون حيال دور حزب الله في سورية. إنهم يخافون من التعبير عن استيائهم علناً". أحد سكان قرية جنوبية قال، "حزب الله يرتكب خطأ تاريخياً". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، جنوب لبنان، تشرين الأول/أكتوبر - كانون/ديسمبر 2013.

<sup>55</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في 14 آذار، ومسؤول في حركة أمل، وصحفيين تربطهم علاقات وثيقة بـ 14 آذار وحزب الله، بيروت، طرابلس، جنوب لبنان، أيلول/سبتمبر - كانون الأول/ديسمبر 2013.

من الإسلاميين إلى العمل السري بانتظار تعيّر الظروف - أي انهيار الاتفاق السياسي، أو إنجاز عسكري مهم تحقّقه المجموعات المسلّحة في سورية"<sup>56</sup>.

بالنظر إلى عمق التحوّل السياسي للحزب، فإن الاستياء محدود بشكل ملفت. لقد اختفت المكونات الرئيسية لاستراتيجيته السابقة المتمثلة في التركيز الحصري على محاربة إسرائيل؛ وعدم تساهله مع الفتنة؛ وضبط النفس؛ وقصر عمله العلني على لبنان. بدلاً من ذلك فقد احتضن نظاماً كان كثيرون من شيعة لبنان يعتبرونه ديكتاتورياً ويصعب قبوله ولم يظهرهوا تعاطفاً كبيراً معه. لقد انخرط في حرب يرى كثيرون أن لإيران بدأ فيها.<sup>57</sup> رغم ذلك، ورغم أن هذه التحركات أبرزت الشكوك حول هويته وأولوياته، فإنها لم تزعزع ولاه قاعدته الشعبية.

يتمثل مصدر الدعم الدائم لحزب الله في تعمّق الانقسام السنيّ - الشيعي في المنطقة وما يترتب عليه من صعود الإسلام السنيّ المتشدد (والذي ينزع نحو التطرف بشكل متزايد). أحد السكان الشيعة في الضاحية عبّر عن إحساسه بالتهديد الوجودي الذي يشاطره إياه كثيرون قائلاً: "على الأقل يمكن للإنسان أن يعيش في ظل نظام الأسد. لكن على النقيض من ذلك، ففي ظل حكم السلفيين أو الجهاديين، ما هو خيارنا [كشيعة]، إلا أن نُذبح بالسواطير"<sup>58</sup> في المناخ الحالي من الاستقطاب المذهبي، فإن العديد من الشيعة لا يرون فائدة في مقاربة أكثر تصالحاً. صحفي تربطه علاقات وثيقة بالحزب قال، "خسر حزب الله السنة حتى قبل تدخله العسكري في سورية. حتى بالنسبة لنا نحن الشيعة كان السؤال، لماذا نضحّي بحليفنا السوري من أجل أطراف كانت ستتحول ضدنا، عاجلاً أم آجلاً"<sup>59</sup>.

الشعارات المعادية لحزب الله، والمعادية للشيعة، والمعادية للعلويين التي طرحتها المعارضة السورية - رغم أنها استعملت في البداية من قبل فئات هامشية فقط - دفعت الطائفة الشيعية إلى الالتفاف حول حزب الله. هذه الشعارات، التي أصبحت أكثر شيوعاً بمرور الوقت - رسّخت فهماً للاحتجاجات كانت كرادر حزب الله والشيعة المتعاطفين مع الحزب يميلون إليه أصلاً.<sup>60</sup> مع شعورهم بالتهديد، فإنهم عرّفوا الانتفاضة بوصفها مخططاً يعكس مؤامرة إسرائيلية - غربية - عربية و انقلاباً سنيّاً على اضطرابات لم يكن لها علاقة أصلاً بمثل تلك المفاهيم.

<sup>56</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، نيسان/أبريل 2014. هذا الاتفاق، المعروف ببساطة بـ "الخطة الأمنية"، يبدو أنه مستمر رغم حدوث بضعة هجمات على الجيش. لقد تراجع القتال في المناطق المتوترة، خصوصاً بين المقاتلين السنة والعلويين في طرابلس، كما تراجع التفجيرات الانتحارية في الأحياء الشيعية. وهذا مُرْحَبٌ به، لكن الهدوء يبقى هشاً. أولاً، من غير المرجح أن تكون المقاربة الأمنية مستدامة بينما تتفاقم المظالم الاجتماعية - الاقتصادية، وتعمق الانقسامات الطائفية وتبقى معالجة موضوع التمثيل السياسي قاصرة. ثانياً، ستستمر الخطة الأمنية فقط طالما استمرت الهدنة السياسية الهشة بين أطراف النخب اللبنانية. ثالثاً، فإن العديد من المتشددين السنة يعتبرون الإجراءات الأمنية متحيزة، وتستهدف طائفتهم في حين تتجاهل انخراط حزب الله في سورية؛ ولذلك كان هناك احتجاجات ضد انتشار الجيش في بعض الأحياء ذات الأغلبية السنية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مواطنين، وقادة محليين، ومشايخ، طرابلس - بيروت، نيسان/أبريل 2014.

<sup>57</sup> تقارير أمنية غير مؤكدة تزعم أن المرشد الأعلى للثورة الإيرانية حتّ نصر الله على إرسال قوات لمساعدة النظام السوري. "تقرير: زعيم حزب الله يجتمع 'سراً' بخامنني لمناقشة دعم الأسد"، العربية 22 نيسان/أبريل 2013؛ "نصر الله يلتقي خامنئي سراً ويجري محادثات في طهران، لمناقشة الأزمة السورية"، البوابة، 28 نيسان/أبريل 2013. صحفي تربطه علاقات وثيقة بالحزب الشيعي قال، "الصورة حسن نصر الله وهو يجلس مع المرشد الأعلى خامنئي قبل إعلان حزب الله عن التدخل في سورية دلالة رمزية وتقول الكثير حول مصادر هذا القرار". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، أيلول/سبتمبر 2013. بُعيد الاجتماع، قال نصر الله، "السورية أصدقاء في المنطقة والعالم لن يدعوا تسقط في أيدي الأمريكيين وإسرائيل والمجموعات التفكيرية". المنار، 9 أيار/مايو 2013. يبدو أن تلك كانت المرة الأولى التي يذكر فيها التهديد التكفيري صراحة. مسؤول إيراني قال إنه، على عكس التقارير الإعلامية، فإن نصر الله كان قد سعى لإقناع إيران أن تسمح له بإرسال مقاتليه إلى سورية، مستعملاً الدفاع عن مقام شيعي في دمشق كمبرر. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طهران، 14 آذار/مارس 2014.

<sup>58</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>59</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>60</sup> في الأيام الأولى للانتفاضة، أطلق بعض المحتجين شعارات مثل "لا إيران ولا حزب الله، بدنا مسلم يخاف الله"، فسُرت على أنها تنهم الشيعة بالردة. تقرير مجموعة الأزمات، "الصراع وتحولاته في سورية"، مرجع سابق. تم تداول مقاطع فيديو تُظهر متظاهرين يحرقون أعلام حزب الله وصورة نصر الله على الإنترنت في أيار/مايو 2011. انظر

www.youtube.com/watch?feature=player\_embedded&v=X90KWdSquW0. أعطى مسؤولو حزب الله لهذه الأحداث وزناً غير متناسب عندما استنتجوا أن الانتفاضة كانت بشكل أساسي ذات صبغة سنية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، أيار/مايو - كانون الأول/ديسمبر 2011.

نزع شيعية لبنان بشكل عام إلى النظر إلى احتمال سقوط نظام الأسد على أنه أول حجر دومينو في سلسلة لن تؤدي فقط إلى توجيه ضربة مميّنة لحزب الله بل ستعكس المكاسب الاجتماعية والسياسية التي حققتها الطائفة الشيعية في أعقاب الحرب الأهلية في لبنان. على حد تعبير أحد مؤيدي الحزب، "إن بديل تقوية حزب الله هو إضعاف الشيعية"<sup>61</sup>.

تحسّنت مكانة الحزب بشكل كبير بعد حرب 2006 مع إسرائيل التي اعتبرتها الطائفة انتصاراً رئيسياً ومعلماً هاماً. وتعزز موقع حزب الله أكثر بعد سيطرة الحزب بسرية وإدارته الكفوة لجهود الإغاثة وإعادة الإعمار، التي أسكنت منتقديه وفضحت عدم كفاءة خصومه، أو الأسوأ من ذلك، عدم اكتراثهم لمحنة الشيعية.<sup>62</sup> كما تعززت ثقة جمهوره ليس فقط بسبب ما رأوا فيه انتصاراً بل أيضاً لأن قيادة حزب الله وفت بوعدها بتحقيق النصر؛ وخرج نصر الله من الصراع كرمز نشأت حوله حالة قوية من عبادة الشخصية. برزت هذه العوامل بوضوح بعد نصف عقد من الزمن، عندما وعد بنصر حاسم في سورية.<sup>63</sup>

الهجمات ضد الطائفة الشيعية عززت دعمها للحزب بمفاخرة مشاعر هشاشة الطائفة أمام التكفيريين.<sup>64</sup> أحد سكان ضاحية الرويس في بيروت، والتي استهدفها تفجير في آب/أغسطس 2013، قال:

بالطبع، أتمنى لو لم يكن علينا أن نعاني من كل هذا. بالطبع، أتمنى لو أن أولئك الذين ماتوا قُتلوا على أيدي الإسرائيليين، وليس السوريين. إلا أن استهداف الأبرياء يظهر فقط أن الحزب كان محقاً. مجموعات المعارضة المسلحة في سورية إرهابيون وينبغي القضاء عليهم. هذه الهجمات ستؤدي فقط إلى تعزيز تصميمنا وقناعتنا أنه كان على حزب الله مقاتلتها قبل أن تتحول إلى تهديد أكبر وأكثر خطورة.<sup>65</sup>

<sup>61</sup> وأضاف: "لولا قوة حزب الله، فإن سمير جعجع [قائد القوات اللبنانية المسيحية] و [رئيس الوزراء السابق] سعد الحريري سيسيطران على البلد وبحرمان طائفتنا من حقوقها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد سكان الضاحية، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>62</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مؤيدين لحزب الله، بيروت، جنوب لبنان، 2009-2013.

<sup>63</sup> أحد أنصار حزب الله قال، "لم يخذلنا نصر الله". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>64</sup> يصّر منتقدو حزب الله على أن سلوكه هو السبب الرئيسي لظهور الهجمات ضد الشيعية، ويتجاهلون الأسباب الأخرى. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>65</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد المتعاطفين مع حزب الله، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

## III. تحديات المستقبل

رغم القوة والتصميم الكبيرين الذين يتمتع بهما حزب الله، فإن الصراع في سورية - والتغيرات المحلية والإقليمية التي أحدثها أصلاً - يمكن أن يثبت خطورته على الحزب على المدى البعيد. ينبغي أن يُنظر إلى موقف الحزب حيال سورية في سياق التغيرات في لبنان منذ اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، الذي اتهمت محكمة دولية أعضاء فيه، وبشكل مثير للجدل، بضلوهم فيه، وما تلا ذلك من انسحاب للقوات السورية من لبنان.<sup>66</sup> ملأ حزب الله الفراغ الذي تركه رحيل حليفه وداعمه الرئيسي.<sup>67</sup> الأهم من ذلك، فإنه رأى ما نتج عن ذلك من تمكين لخصومه السياسيين في تحالف 14 آذار والنفوذ المتزايد للعواصم الأجنبية التي تدعمهم على السياسة في لبنان (واشنطن، وباريس والرياض) كتهديد رئيسي. بينما عززت حرب 2006 من ثقة حزب الله على الصعيد الداخلي، فإنها زادت حذره حيال خصومه اللبنانيين وخصوصاً تحالف 14 آذار، الذي اتهمه بالتآمر مع رعاته الغربيين والسعوديين لخدمة إسرائيل.

نقطنا التحوّل هاتان - اغتيال الحريري وما أعقبه، وحرب عام 2006 - وضعنا السنّة والشبيعة في لبنان على مسار من الانقسام والراديكالية. مع تدهور العلاقات، بات حزب الله، الذي حشد السنّة لعقود وراء ما يُعتقد في سائر أنحاء العالم العربي بأنه مقاومة لإسرائيل، بات يُنظر إليه كميليشيا مذهبية. وقد دفع دوره في الصراع في سورية هذه الديناميكية عدة خطوات إلى الأمام.

## أ. عمق استراتيجي واجتماعي معرّض للخطر

لقد غيّر الصراع سورية بطريقة لا يمكن عكسها؛ فبصرف النظر عن الأداء العسكري للنظام، فإنه سيكون من المستحيل عليه استعادة الوضع الذي كان سائداً عام 2010.<sup>68</sup> باتت عدة مناطق في البلاد الآن خارج سيطرته الفعلية؛ حتى إعادة الاستيلاء عليها لن يكون أكثر من احتلال من قبل قوى أجنبية لمناطق خالية من السكان أو معادية. مصير القصير مثال على ذلك. رغم أنها باتت الآن "مطهرة من أعداء حزب الله"،<sup>69</sup> فإن البلدة المدمرة الفارغة لم تستعد شيئاً ولو شبيهاً بالحياة الطبيعية.<sup>70</sup> إذا عاد سكانها السابقون، فإن عداءهم للحزب الشيعي لن يجعلهم يقبلوا المصالحة - في تناقض صارخ مع عام 2006، عندما احتضنت المناطق الداعمة للمعارضة السورية اليوم اللاجئين اللبنانيين الشيعة الذين هجرهم الهجوم الإسرائيلي وأشدوا بصدق بحرب حزب الله.<sup>71</sup>

نظراً لثقافته بأنه بات عالفاً في صراع وجودي مع المعارضة السورية، فإن حزب الله يستمر أكثر في النظام. ويفعله ذلك، فإنه يبعد نفسه عن شرائح مهمة من المجتمع السوري، وكذلك عن شرائح كانت داعمة له في السابق في لبنان والمنطقة. بالنسبة لحزب اعتبر منذ وقت طويل حاضنته الشعبية، اللبنانية والسورية وفي العالم العربي الأوسع إحدى أصوله الاستراتيجية الرئيسية،<sup>72</sup> فإن الانقسام السنّي الشيعي الذي يزداد عمقاً بشكل عقبة كبيرة. مسؤول رفيع في الحزب أقرّ بذلك: "في الواقع فإن الانقسام الشيعي - السنّي هو مصدر القلق الأكبر".<sup>73</sup> لدى سؤاله عن هذه المخاطرة، كان حاسماً، وجادل بأن حزب الله، والمنطقة برمتها، باتوا يعيشون واقعاً جديداً لم تعد القواعد القديمة قابلة للتطبيق فيه وبات بقاء النظام هو الاعتبار الذي يفوق كل ما عداه: "ليس هناك بديل

<sup>66</sup> انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 100، "المحاكمة بالنار: سياسات المحكمة الخاصة بلبنان"، 2 كانون الأول/ديسمبر 2010؛ "Four Hizbullah members indicted in Hariri death, says source", CNN, 1 July 2011.

<sup>67</sup> في عام 2005، انضم حزب الله، الذي شعر بضعفه بعد مغادرة القوات السورية، إلى الحكومة للمرة الأولى. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، كانون الثاني/يناير 2009. واستثمر تدريجياً في هيكلية الدولة، فحصل على مواقع رئيسية في الجهاز الأمني: المحكمة العسكرية، الأمن العام وأمن المطار؛ وعدة مناصب حيوية يرأسها حالياً أشخاص مرتبطون بالحزب أو بحلفائه. مسؤول في حزب الله وصف سورية بأنها "ضمانة المقاومة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2009. كثيرون يعزّون الفضل لمقاومة حزب الله في انسحاب إسرائيل في أيار/مايو 2000 من جنوب لبنان بعد حوالي عقدين من الاحتلال. ثم احتفظ الحزب بسلحاه، إلى حد كبير بفضل دعم سورية.

<sup>68</sup> "لقد انقطعت صلات النظام بشرائح واسعة من المجتمع، وباتت سيطرته على مناطق واسعة من الأرض السورية هشّة في أحسن الأحوال. حتى إذا تجاوز الأزمة، فإنه على الأرجح لن يسترد قدرته على الحكم بفعالية ولن يكون أمامه خيار سوى الحكم من خلال الرعب". انظر إحاطة مجموعة الأزمات رقم 33، "مرحلة التحوّل نحو الراديكالية في سورية"، 10 نيسان/أبريل 2012، ص. 5. عدد كبير من مسؤولي حزب الله قالوا إن الوضع الذي كان سائداً قبل الثورة لا يمكن استعادته. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>69</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>70</sup> مقابلة هاتفية أجرتها مجموعة الأزمات مع ناشط سوري، آذار/مارس 2014.

<sup>71</sup> مقابلات وملاحظات لمجموعة الأزمات، دمشق ووسط سورية، آب/أغسطس 2006.

<sup>72</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في حزب الله، بيروت، آب/أغسطس - كانون الأول/ديسمبر 2010.

<sup>73</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

للأسد. هناك حلان محتملان: إما اتفاق مع بشار الأسد، أو الفوضى العارمة. إذا لم تقبل المعارضة وحلفاؤها ببقاء الأسد، فإن هذه الحرب والفوضى ستستمر لسنوات".<sup>74</sup>

خطاب حزب الله، الذي ركّز تاريخياً على الصراع ضد القمع، تراجع تدريجياً ليحل محله خطاب من نوع "إما معنا أو ضدنا" وقبول سلبي بالممارسات الوحشية لحليفه السوري. مسؤول رفيع في الحزب قال:

لماذا ننتقد ممارسات النظام؟ هذا سيساعد الطرف الآخر فقط، ولا نستطيع فعل ذلك. أنا لا أقول إن كل ما يفعله النظام جيد، لكننا لن نكسب شيئاً بقولنا ذلك. هذه حرب، وعليك أن تستعمل ما لديك. حتى لو انتقدنا [بعض النواحي]، فإن المعارضة لن تسمعنا لأنهم يريدون منك أن تكون إلى جانبهم بشكل كامل. ولن يعجب النظام أن نملي عليه ما ينبغي فعله. أخيراً، كيف لنا حتى أن نأمل بمخاطبة جميع شرائح الشعب السوري؟ هناك طرفان، وبوسعنا أن نخاطب طرفاً واحداً فقط. الجمهور الموالي للنظام يحبنا، لكن من المستحيل أن نرضي الطرف الآخر في الوقت نفسه. خذ على سبيل المثال الشعب اللبناني: بصرف النظر عما نقول، فإن الطرف الآخر يكرهك.<sup>75</sup>

تُمثّل هذه السياسة الواقعية تحولاً راديكالياً بالنسبة لحزب كان يُمتدح حتى الآن على أيديولوجيته المبدئية.

رغم أن قادته يحذرون من الصراع المذهبي، فإن دور حزب الله في سورية، كدور خصومه السلفيين، ساعد في تغذية هذا الصراع.<sup>76</sup> على عكس صدامه مع المسلحين السنة خلال استيلاء الحزب على أجزاء من بيروت في أيار/مايو 2008، الذي برره على أنه ضروري لحماية شبكة اتصالاته المستقلة وحيوي لصراعه مع إسرائيل،<sup>77</sup> فقد بات حزب الله يُعرّف ما يقاتل لأجله من خلال تعريفه لما يقاتل ضده. إن وصفه لخصمه على أنه تكفيري، وليس سنياً حقيقياً، لا يُطمئن العديد من السنة الذين ينظرون إلى تدخل حزب الله بأنه مدفوع بمصالح مذهبية. لقد قوّضت دعايته ذاتها جميع الادعاءات التي لا يزال يطلقها ليبقي فوق الصراع المذهبي.

بجمعه لكل الطيف الأيديولوجي الواسع للمجموعات السورية المسلحة تحت راية التكفيريين، فإن حزب الله لا يميّز بين غير الإسلاميين، والإسلاميين الوسطيين والمتطرفين على نمط جهادي القاعدة - وبالتالي يعزز التصور بأن هذه الحرب موجهة ضد السنة بشكل عام.<sup>78</sup> بالنسبة للعديد من السنة، فإن صفة التكفيريين هي أحدث إهانات حزب الله لهم، وتثير استياءً ساعد في رفع عدد الجهاديين المتطوعين ومكّن المتطرفين اللبنانيين.<sup>79</sup> لقد عززت العداوة الناجمة عن ذلك قدرات السلفيين على جمع التبرعات،<sup>80</sup> وزادت تهريب الأسلحة؛<sup>81</sup> وأبرزت الشعور بأنه يمكن تحدي حزب الله. صحفي من طرابلس حذر قائلاً:

إن حزب الله، في اتهامه المستمر للسنة والتكفيريين، يوجج الراديكالية السنّية. لقد أصبحت الكراهية حيال الحزب الشيعي راسخة بعمق إلى درجة أن العديد من السنة باتوا يرون في قتيبة الساطم [منفذ هجوم انتحاري في الضاحية] بطلاً.<sup>82</sup>

حقيقة أن قتل أنصار حزب الله يُنظر إليه على أنه انتقام مُرحّب به في بعض الأوساط السنّية يشير إلى مدى العمق الذي وصل إليه النفور السنّي.<sup>83</sup>

<sup>74</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>75</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>76</sup> لقد حذر نصر الله تكراراً من الانقسام السنّي الشيعي. اتهم المتشددون التكفيريين المرتبطين بالقاعدة "بمحاولة زرع الشقاق بين المسلمين السنة والشيعية في سورية". *Tehran Times*, 3 July 2013. "أسوأ ما حدث في سورية هو ما يحدث منذ سنوات من خلاف مذهبي. إن المذهبية هي أسوأ الأبعاد وأكثرها خطورة. الصراع في سورية دائر بين معسكرين، وجبهتين، ومشروعين، وليس بين السنة والشيعية. إنه ليس صراعاً بين الطوائف. لماذا تحولونه [المعارضة وورعاتها] إلى معركة بين طائفتين؟". خطاب، يوتيوب، 14 حزيران/يونيو 2013. انظر أيضاً خطابات أخرى، المنار، 25 كانون الثاني/يناير 2013؛ 25 أيار/مايو 2013.

<sup>77</sup> لمزيد من المعلومات، انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 23، لبنان: "أسلحة حزب الله تتحول إلى الداخل"، 15 أيار/مايو 2008.

<sup>78</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لبنانيين ولجائنين سوريين، طرابلس، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2013. ناشط سوري قال، "عندما شنت الولايات المتحدة حرباً ضد الإرهاب، فإن معظم المسلمين في سائر أنحاء العالم شعروا أنها حرب ضدهم. حزب الله وحربه ضد التكفيريين تُفهم بنفس الطريقة من قبل السنة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>79</sup> تقارير مجموعة الأزمات، "توازن هش"، "لا عزاء في القرب"، مرجعان سابقان.

<sup>80</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سلفيين، ومشايخ ونشطاء سوريين، طرابلس، تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>81</sup> تقرير مجموعة الأزمات، "لا عزاء في القرب"، مرجع سابق، ص. 20-22.

<sup>82</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الثاني/يناير 2014.



لقد عززت السياسات الطائفية الخصومات الإقليمية؛ فقد أدى النزاع بين إيران والسعودية إلى أشكال ومستويات غير اعتيادية من العنف، حتى بالمعايير البانسة للمنطقة. بالإضافة إلى بلدان أخرى مثل قطر وتركيا،<sup>84</sup> فإن كلاً منها غذى الاستقطاب المذهبي في حين يحمل الآخر المسؤولية.<sup>85</sup> ما لم يساعد على الإطلاق كان التساهل في قبول المقاتلين الأجانب، المدفوعين في معظمهم بدوافع مذهبية قوية. مع انضمام ستة من تونس، وليبيا، ولبنان والغرب إلى جماعات المعارضة المسلحة، دخل شعبة لبنانيون، وإيرانيون، وعراقيون، وأفغان وباكستانيون إلى سورية إلى جانب النظام.<sup>86</sup> رغم جهود النظام للتأكيد على صورته العلمانية، فإن حزب الله وغيره من المتشددين الشيعة غير السوريين، كنظرائهم السنة، يقاتلون تحت راية جهادية.<sup>87</sup> كنظرائهم السنة، فإنهم يستعملون خطاباً مذهبياً عميقاً: على سبيل المثال، فإنهم يشبهون الحرب بمعركة كربلاء، التي حدثت في القرن السابع، بين حفيد النبي محمد، الإمام الحسين، والقوى الموالية للخليفة الأموي يزيد، وهو حدث له أهمية كبرى عند الشيعة ويقع في مركز الانقسام بين المذهبين الرئيسيين في الإسلام، السنة والشيعة.<sup>88</sup>

حزب الله جزء لا يتجزأ من هذا الصراع الإقليمي. قام على وجه الخصوص بشن حملة ضد السعودية، متهماً إياها بمنع تشكيل الحكومة اللبنانية، ونسف عملية السلام الهادفة إلى إنهاء الصراع في سورية وإعطاء الأوامر بمهاجمة السفارة الإيرانية في لبنان.<sup>89</sup> يتبنيه الخطاب العدواني نفسه الذي يتبناه خصومه اتجاه إيران، فإن حزب الله سقط في فخ السياسة المذهبية، وهو أمر كان قد تحاشاه بحذر في السنوات الماضية.<sup>90</sup>

<sup>83</sup> مقابلات وملاحظات لمجموعة الأزمات، مع مشايخ ومتشددين سنة، طرابلس وبيروت، تشرين الثاني/نوفمبر - كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>84</sup> بعد أن أدت سياسات تركيا إلى ابتعاد حلفائها السابقين إيران وحزب الله عنها، فإنها تحالفت مع دولتين خليجيتين سنيتين محافظتين هما السعودية وقطر. بات يُنظر إليها بشكل متزايد من قبل سكانها العلويين، والنظام السوري وحلفاءه ومراقبين آخرين بوصفها لاعباً سلبياً الأخطر من ذلك، فإنها في الحد الأدنى غضت النظر عن استعمال الجهاديين السنة لحدودها للدخول إلى سورية. انظر تقرير مجموعة الأزمات حول أوروبا رقم 225، 30 April 2013؛ "Blurring the Borders: Syrian Spillover Risks for Turkey", 30 April 2013؛ "Is Turkey going to reconsider its Sunni sectarian policy in Syria?", The Turkey Analyst, 25 September 2013؛ "Turkey's sectarian war with Iran over Syria and Iraq", Al-Monitor, 4 January 2013؛ "Erdogan Stokes the Sectarian War", The New York Times, 7 October 2013؛ "The 'Sunnification' of Turkish policy", Al-Monitor, 1 March 2013. في الدوحة، خاطب يوسف القرضاوي، وهو رجل دين مصري بارز مقيم في قطر برأس الأتحاد الدولي للعلماء المسلمين الذي يحظى بنفوذ كبير، خاطب حشداً بعبارة شديدة المذهبية: "على كل مسلم [سني] مدرب على القتال وقادر عليه أن يتقدم بنفسه [للقاتل في سورية]. إيران تدفع بالسلاح والرجال، فلماذا ننفق مكتوفي الأيدي؟ قائد حزب الشيطان [أي حزب الله] يأتي لقتال السنة... الآن نعرف ما يريد الإيرانيون... يريدون استمرار المذابح لقتل السنة". يُذكر أن قطر طردت عشرات اللبنانيين الشيعة من أنصار حزب الله. "Syria conflict: Cleric Qaradawi urges Sunnis to join rebels", BBC, 1 June 2013؛ "Qatar 'expels Lebanese after GCC H[i]zbollah decision'", Now, 20 June 2013.

<sup>85</sup> إضافة إلى الدعم المباشر الذي تقدمه للنظام السوري، فإن إيران دعمت مجموعات شيعية قاتلت في سورية حيث يُعتقد أنها شكلت ميليشيا. مقطع فيديو مسرب أظهر شخصية وصفتها وسائل الإعلام الإيرانية بأنه ضابط رفيع في الحرس الثوري يقول، "الحرب الحالية في سورية هي حرب الإسلام ضد الكفار، الخير ضد الشر... هذه الجبهة [الإسلامية] يدعمها حزب الله. المقاتلون إيرانيون، ومن حزب الله، وعراقيون ومجاهدون أفغان وغيرهم. والأعداء هم إسرائيل، والسعودية، وتركيا وقطر. إضافة إلى أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا وأوروبا". "Leaked video: Iran guiding thousands of Shiite fighters to Syria", The Christian Science, 23 September 2013. لقد مولت السعودية المجموعات المسلحة السورية وزودتها بالسلاح، في حين تمسك المحتجين الشيعة في الداخل وتدخلت عسكرياً في البحرين لقمع انتفاضة شيعية، يُنظر إليها أنها ذات أغلبية شيعية. Saudi troops enter Bahrain to help put down unrest", The New York Times, 14 March 2011.

<sup>86</sup> "Foreign fighters flood both sides in Syrian war", NPR News, 17 January 2014.  
<sup>87</sup> وسائل إعلام حزب الله تعلن أن مقاتليه في سورية قتلوا خلال أذانهم لـ "واجبهم الجهادي". انظر، على سبيل المثال، المنار، 28 كانون الأول/ديسمبر 2013، 213 نيسان/أبريل 2014.

<sup>88</sup> حفلت وسائل الاتصال الاجتماعية بصفحات ومقاطع فيديو تدعو للدفاع عن المقامات الدينية في سورية وتمتدح الشباب الشيعة الذين قتلوا في جهادهم لحمايتها، على سبيل المثال، www.facebook.com/groups/466006650098572/#\_=\_؛ ويات عرض الأعلام والصور، والأغاني التي تمجد الرموز الشيعية، التي كانت في الماضي تُمارس بشكل أساسي خلال عاشوراء [الاحتفال بذكرى وفاة الإمام الحسين]، حاضرة بشكل كاسح في المناطق ذات الأغلبية الشيعية. أغنية تمجد السيدة زينب، شقيقة الإمام الحسين، صدحت بصوت عالٍ في مطار بيروت. العديد ممن تحدثنا إليهم، بمن فيهم بعض الشيعة عبروا عن انزعاجهم من ممارسات تُعتبر "استفزازية ومتحديّة". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي شيعي، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013؛ ومع سكان، بيروت، 2013. ملاحظات لمجموعة الأزمات، أحياء بيروت والمطار، 2013 - أيار/مايو 2014.

<sup>89</sup> "Hariri blasts Nasrallah over Saudi accusations", The Daily Star, 14 November 2013؛ "Riyadh seeking to derail Syria peace talks: Nasrallah", The Daily Star, 28 October 2013؛ "Nasrallah links Saudi Arabia to Iran embassy attack", Now, 3 December 2013.

<sup>90</sup> خصوم حزب الله يتهمون إيران باستمرار بالهيمنة على لبنان أو بتوظيف حزب الله لقرض إرادتها. لقد ذهب بعضهم إلى حد دعوتها إلى "رفع يدها عن لبنان"، والتعهد بـ "وضع حد لاحتلال الثورة الإيرانية للبنان كي يبقى بلداً للحوار، والتعددية، والديمقراطية، والحدثة والانفتاح". رئيس الوزراء الأسبق سعد الحريري قال، "أعرف أن [نصر الله] لن يصغي إلى صوت لبناني لإنهاء انخراطه في سورية" لأن الفتوى الإيرانية في أدنيه أقوى وأوضح". The Daily Star, 17 December 2013؛ 7 February 2014.

ليس هناك مخرج سهل من هذا الفخ. في المحصلة، فإن أي من الطرفين لا يستطيع تحقيق النصر في الصراع بين السنة والشيعية؛ وقد كشف رد الفعل ضد تدخل حزب الله في سورية أصلاً محدودية قوته العسكرية. في حين أن الحزب قاتل بفعالية ضد الجيش الإسرائيلي، فإن مخزونه من الصواريخ أقل فعالية ضد المقاتلين الجهاديين. لقد تدرّب حزب الله على القتال في معارك على طراز حرب العصابات ضد جيش أكبر بكثير، وليس الدفاع عن نفسه ضد الانتحاريين. إن استهداف الهجمات التي يقوم بها الجهاديون للمدنيين بدلاً من القوات العسكرية تصعب على الحزب احتواءها. إن أي محاولة لعزل طائفته بالداخل - خصوصاً الضاحية الجنوبية لبيروت - تعيق قدرتها بشكل كبير على العمل بشكل طبيعي؛ فالإجراءات المتخذة لتأمين الأحياء الشيعية في بيروت أعاقَت أصلاً الحياة الاجتماعية والتجارية فيها.<sup>91</sup> أما إغلاق المناطق السنّية في لبنان حيث يختبئ أولئك الذين يسهلون الهجمات على الأهداف الشيعية فإنه سيقصّل التهديد مؤقتاً في أفضل الأحوال.<sup>92</sup>

هذا الفخ يزداد إحكاماً باستمرار، لأن خصومه مقتنعون بأن عليهم أن يواجهوا حزب الله بفعالية وبشكل عاجل. العديد من اللبنانيين السنة يتتبعون تاريخ الأحداث السياسية التي تفضي إلى هذا الاستنتاج: اغتيال الزعيم السنّي رفيق الحريري عام 2005؛ استيلاء حزب الله السريع على العاصمة في أيار/مايو 2008؛ وإسقاطه للحكومة التي قادها سعد الحريري في كانون الثاني/يناير 2011. يُنظر إلى تلك التطورات على أنها جزء من نموذج أوسع يتحقق في بلدان أخرى، مثل العراق حيث تولد الهيمنة الشيعية والنفوذ الإيراني مشاعر الذل، والقمع والمظلومية بين العديد من السنة.<sup>93</sup>

يصبح التحدي الذي يواجهه حزب الله أكبر بالنظر إلى وجود أكثر من مليون لاجئ سوري في لبنان، غالبيةهم العظمى من السنة المستأؤون من الدور العسكري الذي يلعبه الحزب في بلادهم. أحد النشطاء السوريين قال، "إن ينسى السوريون أن حزب الله حاربهم وقتل عائلاتهم. قد نتصالح فيما بيننا. إلا أن حزب الله سيبقى دائماً دخيلاً قتل السوريين واحتل سورية".<sup>94</sup> يثير وجود اللاجئين السوريين في المناطق الشيعية شكوكاً عميقة وانعداماً للثقة بين أنصار الحزب.<sup>95</sup> رغم أن أقلية صغيرة وحسب تنشط اليوم سياسياً وعسكرياً، إلا أن لبنان يمكن أن يشهد نشاطاً مسلحاً أكبر في أوساط اللاجئين. طبقاً لمسؤول أمني رفيع:

إذا استمر وجود اللاجئين السوريين لمدة أطول من اللازم، فإن هذا الوجود يمكن أن يصبح خطراً أكبر من وجود الفلسطينيين. لا يزال السوريون اليوم منشغلين بترتيب أوضاعهم. بعد فترة، سينخرطون في اللعبة السياسية. ثمة مخاطر حقيقية في تسبيهم. في بعض القرى، يتساوى عدد اللاجئين بعدد اللبنانيين.<sup>96</sup>

#### ب. تحوّل حزب الله: ما مستقبل المقاومة؟

بالنسبة للحزب الشيعي، فإن القتال ضد إسرائيل رسمياً على الأقل، يظل هدفة النهائي، ومبرر تأسيسه واستمرار وجوده كحركة مقاومة. لا تزال مقاتلة إسرائيل حتى اليوم تشكل القضية التي يلتف حولها أنصاره، الذين يصفون إسرائيل بأنها التهديد الأكبر في المنطقة.<sup>97</sup> يُصرّ حزب الله على أن مشاركته في سورية لا تؤثر في قدرته على مواجهة إسرائيل. مسؤول حزبي رفيع أصرّ: "لا نزال مستعدين لمحاربة إسرائيل. لدينا ما نستطيع أن نسميه قوات خاصة تحارب في سورية، ووجودهم هناك لا يصرّفنا عن المقاومة [ضد

<sup>91</sup> انظر "Social, economic tolls wear down Dahiyeh residents", *Now*, 2 February 2014. [www.southlebanon.org/?p=109831](http://www.southlebanon.org/?p=109831)

<sup>92</sup> السكان الشيعة، المحتجون على استهداف الصواريخ والسيارات المفخخة لطائفتهم، أغلقوا الطريق الرئيسي إلى قرية عرسال السنّية في البقاع. أسوشيتد برس، 19 آذار/مارس 2014.

<sup>93</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين، وسكان، ومشايخ، ونشطاء سنّة، بيروت، عكار، طرابلس، صيدا، عرسال، كانون الأول/ديسمبر 2011 - نيسان/أبريل 2014. تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 96، "سياسات لبنان: الطائفة السنّية وتيار المستقبل"، 26 أيار/مايو 2010.

<sup>94</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>95</sup> في عدة حالات، تبعت الهجمات الانتحارية هجمات ضد السوريين. نتيجة لذلك، فإن اللاجئين اختفوا من الشوارع في المناطق الشيعية خلال المسيرة التي نظمها حزب الله للاحتفال بذكرى عاشوراء. ملاحظات لمجموعة الأزمات، تشرين الثاني/نوفمبر 2013. صاحب دكان في حي شيعي قال، "أعضاء حزب الله والسلطات اللبنانية لم تسمح لأي غريب بالدخول أو الخروج. أحد السوريين لم يُسمح له حتى بالذهاب إلى بيته". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، الخندق الغميق، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>96</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>97</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع أعضاء في حزب الله وأنصار له، بيروت، جنوب لبنان، تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2013.

إسرائيل]"<sup>98</sup> الخطاب الرسمي يؤكد على أن الجهاديين متحالفون مع إسرائيل، ولذلك فإن ما يبدو صراعين مختلفين هما في الواقع صراع واحد.<sup>99</sup>

لكن، وحتى بالنسبة لشخص يتمتع بمهارات تواصلية عالية مثل نصر الله، فإن ربط الصراعين بشكل تحدياً. إن المزاعم بأن الثورة السورية واقعة "تحت سيطرة القوى الإسرائيلية - الأمريكية التكفيرية"<sup>100</sup> تصعب على التصديق لم يسبق للخطاب الرسمي للحزب أن وقع في مثل هذه المطبات في الماضي. حتى بعض أفراد الحلقة الداخلية في الحزب الشيعي لديهم شكوكهم. صحفي مقرب من الحزب قال، "نعرف أن هذه الحجج ليست منطقية كثيراً. إنها مصممة للاستهلاك الشعبي".<sup>101</sup>

مع هذا الضغط الكبير على قدراته، من غير الواضح إلى أي حد سيكون حزب الله قادراً على مواجهة إسرائيل إذا ظهرت الحاجة إلى ذلك؛ فهو لم يقدّم بارسال بعض مقاتليه المخضرمين إلى سورية، بل إنه يجد نفسه مضطراً لتخصيص المزيد من الموارد دائماً لحماية مناطقه من التهديدات الداخلية. من غير المعروف ما إذا كان النظام السوري، الذي انتابه الضعف والتحول، سيتمكن من دعم حليفه بشكل مؤثر إذا تجدد الصراع مع إسرائيل، وكيف سيقوم بذلك. لقد استنفذ الكثير من أصوله العسكرية التقليدية وغير التقليدية، وأية أفعال استنزافية، مثل زيادة عمليات نقل الأسلحة إلى حزب الله، قد تؤدي إلى رد فعل انتقامي إسرائيلي مباشر يهدد بقاءه.

كما تبدو الجبهة الداخلية لحزب الله مختلفة تماماً عما كانت عليه عام 2006. قد تستمر شرائح لبنانية وسورية وعربية هامة بدعمه ضد إسرائيل، إلا أنه بات على الحزب الآن أن يواجه عناصر محلية وسورية معادية قد تغتتم الفرصة التي يوفرها هجوم إسرائيلي. علاوة على ذلك، فإن القاعدة الشعبية لحزب الله ستواجه صعوبة أكبر في اللجوء إلى سورية التي مزقتها الصراخ.

كما أن دعمه للأسد أدى إلى توتر علاقات حزب الله مع حليفه الوثيق السابق، حماس، ما حرّمه من صلات مهمة بالقضية الفلسطينية التي يتبناها. رغم المحاولات بإصلاح العلاقات بين الحركة وما يسمى بمحور المقاومة، فإن هذه المصالحة لم تتحقق بعد.<sup>102</sup> الأمر الأسوأ من منظور حزب الله هو أن نظام دمشق يتواصل مع قيادة حركة فتح في رام الله - خصم حماس - التي تفتقر إلى الشرعية من منظور المقاومة كممثلة للصراع الفلسطيني.<sup>103</sup>

لم يكن الضرر الذي لحق بسمعة حزب الله أقل من الضرر المادي الذي أصابه. كان في الماضي يحظى باحترام واسع في أوساط السنة في سورية والمنطقة؛ بينما الآن، على النقيض، بات العديد من السوريين واللبنانيين يرون في إسرائيل عدواً لطيفاً بالمقارنة معه.<sup>104</sup> المعارك السورية تؤدي بحياة مقاتليه المخضرمين الذين خاضوا معارك ضد إسرائيل<sup>105</sup> وتتوّج أبطالاً جدداً يصنعون سمعتهم ضد عدو آخر - وتختلف خبرتهم في المعارك بكثير عن خبرة أولئك الذين يحلون محلهم. وبهذا المعنى، فكلما استمرت الحرب في سورية، كلما تراجع التهديد الذي يشكّله الحزب لإسرائيل.

<sup>98</sup> مسؤول آخر أضاف: "المقاومة [لإسرائيل] تقوم على أصول عسكرية منفصلة تماماً لا نستعملها على الجبهة السورية". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013.

<sup>99</sup> في أيار/مايو 2013، أعلن نصر الله: "هناك محور تقوده الولايات المتحدة، بينما يعمل اللاعنون الآخرون تحت قيادتها. الجميع يعرفون أن هذا المحور مدعوم من إسرائيل، في حين أن القاعدة والمنظمات التكفيرية الأخرى من سائر أنحاء العالم دُفع لها لتشارك فيه... التكفيريون هم المجموعة السائدة في المعارضة السورية". Naharnet, 25 May 2013.

<sup>100</sup> "نصر الله يقول إن حزب الله لن يخضع للتهديدات المذهبية"، Now, 14 June 2013. كما قال، "إذا سقطت سورية في أيدي أمريكا، وإسرائيل والتكفيريين، ستحاصر المقاومة وستدخل إسرائيل إلى لبنان وتقرض إرادتها"، "H[i]zbollah's war in Syria", The Independent, 26 May 2013.

<sup>101</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>102</sup> "Hamis and Iran in talks to repair ties", The Telegraph, 1 August 2013. تقرير مجموعة الأزمات، "الجولة القادمة في غزة" مرجع سابق، ص. 4. مسؤول في حماس قال، "لا نستطيع اليوم أن نتحدث عن مصالحة مع إيران. ليس لدينا علاقات عداوة معهم، لكننا لا نحصل على أي شيء منهم". المرجع السابق، ص. 9.

<sup>103</sup> في تشرين الأول/أكتوبر 2013، اجتمع بشار الأسد مع عباس زكي، المبعوث الخاص لرئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس. المنار، 7 تشرين الأول/أكتوبر 2013.

<sup>104</sup> يمكن سماع تعليقات مثل "النظام السوري وحلفاؤه أسوأ من إسرائيل" و "لم تفعل إسرائيل ما يفعله الأسد" بشكل متكرر في أوساط السكان اللبنانيين المؤيدين للمعارضة، والنشطاء واللاجئين السوريين. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، طرابلس، تشرين الأول/أكتوبر 2013 - نيسان/أبريل 2014.

<sup>105</sup> إن أوصاف وأدوار مقاتلي حزب الله الذين قُتلوا في سورية غير واضحة. إلا أن مسؤولي الحزب ووسائل إعلامه أشاروا إلى البعض بأنهم قادة، بما في ذلك قادة كبار. انظر، على سبيل المثال، برس تي في، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2013؛ Naharnet, 8 December 2013؛ المنار، 19 كانون الأول/ديسمبر 2013، 18 نيسان/أبريل 2014.

## ج. اعتداد بالقوة؟

في السنوات الأخيرة، سعى حزب الله لإظهار قوة كبيرة كلما واجه خصماً، في تحوّل مهم عن عقيدته العسكرية التي التزم بها خلال التسعينيات.<sup>106</sup> في أعقاب انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان عام 2000، دفعته التهديدات المتتالية لمكانته السياسية وبنيتة العسكرية التحتية إلى إثبات حضوره بشكل أقوى في المشهد السياسي اللبناني: إصراره على الاحتفاظ بترسانته بعد الانسحاب الإسرائيلي؛<sup>107</sup> وتداعيات اغتيال رفيق الحريري عام 2005 وما تلاه من انسحاب القوات السورية من لبنان؛ والتوتر الذي ساد حيال المحكمة الدولية التي شكّلت للتحقيق في اغتيال الحريري؛ وحرب عام 2006 ضد إسرائيل والإشارات إلى أن تحالف 14 آذار سعى لتقويض المقاومة.<sup>108</sup> بعد حرب عام 2006، أصبح الحزب الشيعي أكثر صدامية، وتبنى خطاباً أكثر تهديداً وحول سلاحه نحو الداخل.<sup>109</sup>

وعلى نحو مماثل، فإن الحزب وأنصاره لجأوا بشكل متكرر إلى التخويف لإسكات الأصوات المعارضة داخل الطائفة الشيعية. في أيار/مايو 2008، طرد مسلحون شيعة مفتي صور حينذاك، علي الأمين، وحرقوا ونهبوا مكتبه. قال: "كانوا يضربون مثلاً. كانوا يرسلون رسالة واضحة مفادها أن هذا سيكون مصير كل من يعارضهم".<sup>110</sup> شيعة آخرون مناهضون لحزب الله يروون قصصاً مماثلة عن عمليات التخويف.<sup>111</sup> ينعكس إبراز العضلات هذا في أوساط الأعضاء العاديين في الحزب، الذين يُنظر إلى سلوكهم على أنه يُظهر الكثير من الغطرسة والازدراء بشكل متزايد. في معاقل حزب الله، يشكو السكان الشيعة مما يسمونه بلطجة بعض أفراد الطائفة. حتى المؤيدين المتحمسين يعترفون بأن البيئة الحالية التي تطغى عليها العسكرة، باتت تؤدي إلى إبراز حزب الله لعدوانيته في الداخل. أحد أنصار الحزب أقر بذلك قائلاً: "العديد من الشيعة يشعرون بأن قوة حزب الله هي قوتهم، كأفراد. وينعكس هذا في بعض أشكال السلوك الاجتماعي السلبي. البعض يتبنى مواقف استنزائية حتى في أصغر القضايا، مثل النزاع على موقف للسيارات".<sup>112</sup>

مثل هذا السلوك لا يقتصر إطلاقاً على الطائفة الشيعية في لبنان، غير أن مجموعات أخرى في لبنان تنزع إلى الاعتقاد بأن الشيعة لن يحاسبوا، بسبب تدخل حزب الله وحركة أمل الأصغر، اللذان يتدخلان في بعض الأحيان

<sup>106</sup> ركز حزب الله بشكل رئيسي بين عامي 1990 و 2000 على إسرائيل. وسّع شبكته الاجتماعية في المناطق ذات الأغلبية الشيعية لكنه ترك لحركة أمل الشيعية الاهتمام بالاحتياجات السياسية للطائفة.

<sup>107</sup> المعارضة المسيحية، والزعيم الدرزي وليد جنبلاط ورفيق الحريري، الذين اعتقدوا بأن انسحاب إسرائيل سيغني نزع سلاح حزب الله، حنوا على نشر الجيش على الحدود الجنوبية.

<sup>108</sup> للمزيد، انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 48، "لبنان: معالجة عاصفة تتجمع"، 5 كانون الأول/ديسمبر 2005؛ ورقم 57، "إسرائيل/فلسطين/لبنان: الخروج من الهاوية"، 25 تموز/يوليو 2006؛ ورقم 69، "حزب الله والأزمة اللبنانية"، 10 تشرين الأول/أكتوبر 2007؛ "المحاكمة بالنار"، مرجع سابق؛ ورقم 97، "طبول الحرب: إسرائيل و'محور المقاومة'"، 2 آب/أغسطس 2010.

<sup>109</sup> حول استيلاء حزب الله على بيروت في أيار/مايو 2008، انظر إحاطة مجموعة الأزمات، "لبنان: حزب الله يوجّه سلاحه إلى الداخل"، مرجع سابق. مثال آخر كان نشر مقاتليه غير المسلحين لفترة وجيزة في شوارع بيروت خلال الأزمة السياسية في شباط/فبراير 2011. إظهار القوة هذا، الذي سُمّي في لبنان "حادثة القمصان السود"، كان يُقصد منه تحذير خصومه من إعادة ترشيح سعد الحريري رئيساً للوزراء بعد أن أطاح به حزب الله وحلفاؤه. مثال آخر كان الرد على إدانة أعضاء في الحزب من قبل المحكمة الدولية التي تحقّق في اغتيال رفيق الحريري. قال نصر الله، "واهمون الذين يعتقدون أننا سنسمح باعتقال أو احتجاز أي من مجاهدينا. سنقطع اليد التي تحاول الوصول إليهم". *The Daily Star*, 12 November 2010.

<sup>110</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت تشرين الثاني/نوفمبر 2013. صحفي معارض لحزب الله علق قائلاً: "عندما أ طرح المخاوف من سيطرة حزب الله والحاجة إلى مواجهتها، كثيرون يقولون لي: 'الم ترّ ما فعلوه بالسيد علي الأمين!'". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>111</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع شيعة مناهضين لحزب الله، بيروت، جنوب لبنان، تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2013. أحد الصحفيين قال، "عندما تعيش في الضاحية وتكون معارضاً لحزب الله، عليك أن تقبل بحياة صعبة. قد تشعر بالجزلة إذا عارضت، أو إذا لم تتبع حزب الله ببساطة، لا تستطيع أن تدير عملاً. أعضاء الحزب، وأنصاره، وداعموه سيقاطعون محلك". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013. شخص آخر قال، "أنا وأفراد أسرتي نتعرض بشكل متكرر للإهانات والتهديدات. أي زائر أستقبله يتبعه مقاتلو حزب الله. لقد طلب مني بعض الأصدقاء أن التقيهم خارج الضاحية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013. مقالة نشرت في جريدة/الأخبار المالية لحزب الله، "ويكيليكس: أدوات أمريكا الشيعة في لبنان"، اتهمت عدداً من الصحفيين الشيعة وشخصيات شيعة أخرى التقوا بمسؤولين أمريكيين بأنهم عملاء ومخبرين. أحد الصحفيين الذي وردت أسماؤه في المقالة قال، "في الأوساط الشيعية، اتهام شخص بالعمل لصالح الأمريكيين يرقى إلى الاتهام بالخيانة. هذه المقالة كانت تدعو إلى تصفيتنا". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013. امرأة شابة انتقدت دعم حزب الله للنظام السوري تعرّضت للتهديد والإهانة على فيسبوك ومنعت من العودة إلى قريتها. /المدن، 23 أيار/مايو 2013.

<sup>112</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد أنصار حزب الله، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

لإقناع قوات الأمن والجهاز القضائي بعدم اعتقال واحتجاز الشيعة، كما يعتقدون.<sup>113</sup> سائق تاكسي قال، "لا أذهب إلى الضاحية، فهناك الكثير من البلطجية. تعرّضت لحادث سيارة ذات مرة. وقام الشخص المسؤول عن الحادث بإهانتني وتهديدي ومضى في حاله. لم أستطع فعل شيء حيال ذلك". امرأة صدمت ابنها سيارة في حي شيعي قالت، "لم أتقدم بشكوى، تنازلت عن حقي [بالمطالبة بنفقات المستشفى]. لا أستطيع الاضطدام مع شيعي".<sup>114</sup>

في سورية أيضاً، أظهر حزب الله قوة مفرطة. ما بدا على أنه عملية محدودة لتعزيز قوة النظام وردع أعدائه عبر الحدود اتّسع ليصبح تدخلاً واسع النطاق، وأدى إلى تحوّل في موقع الحزب من الدفاع ورد الفعل إلى ما يبدو للكثيرين على أنه عدوانية فعلية. أحد مسؤولي الحزب قال بصراحة: "عندما كشف حزب الله علناً عن تدخله في سورية، كانت الرسالة إلى أعدائه واضحة: الحزب قوة يُعتدّ بها".<sup>115</sup> بعد إعلان نصر الله في نيسان/أبريل 2014 بأن النظام بات آمناً، وأن سلامة الأراضي السورية باتت مضمونة لم يلجأ الحزب فقط إلى ترك قواته في البلد المجاور، بل إنه التزم باستثمار المزيد على أمل تحقيق النصر الكامل.<sup>116</sup> اللغة الصريحة التي يمكن قراءتها ما بين السطور هي أن قدرات وطموح حزب الله كبرت إلى حد أنه بات بوسعه أن يفرض قواعد اللعبة، ليس فقط في لبنان بل في سورية أيضاً.

لقد أثارت قوته الظاهرة أعداءه وأضعفت تحالفاته المحورية في سائر أنحاء المنطقة. في مواجهة جملة جديدة من التهديدات، أصبح حزب الله مكشوفاً؛ وفي مسعاه لفرض هيمنته، أصبح أكثر هشاشة.

<sup>113</sup> في سائر أجزاء الطيف السياسي، تقوم الأحزاب والقادة بحماية مؤيديهم، ويعيقون المسائلة عن السلوك الإجرامي أو البلطجة. إلا أن حزب الله في بعض المناطق التي يسيطر عليها، يمنع وصول قوات الأمن التابعة للدولة، ما يعزز الاعتقاد بأن الشيعة يتلقون حماية أكبر من الطوائف الأخرى.

<sup>114</sup> مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان أحياء مسيحية وسنية على التوالي، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013.

<sup>115</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2013.

<sup>116</sup> السفير، 8 نيسان/أبريل 2014. نعيم قاسم، نائب الأمين العام لحزب الله، قال، "حتى الآن نعتبر وجودنا في سورية ضروري وجوهري"، رويترز، 9 نيسان/أبريل 2014؛ وقالوا نصر الله، "من الطبيعي أن يترشح بشار الأسد للانتخابات [الرئاسية السورية]"، وأضاف قاسم: "أعتقد أن الانتخابات ستجري في تاريخها، وأن الأسد سيترشح وسيفوز بشكل حاسم"، مرجع سابق. بعد أسبوعين من هذه التصريحات، أعلن النظام السوري إجراء الانتخابات الرئاسية في حزيران/يونيو 2014. يتوقع الخصوم بأن الانتخابات ستؤكد انتصار الأسد وتنتهي احتمال حل تفاوضي. *The Independent*, 21 April 2013.

## IV. الخلاصة

ثمة العديد من الأسباب التي تدعو حزب الله لسحب قواته من سورية، كما يطالبه منتقدوه.<sup>117</sup> لم يعد البقاء المباشر للنظام على المحك. وستظهر قريباً تكاليف التدخل الواسع بشكل أوضح. إن وقف أي شكل من أشكال التدخل اللبناني في الحرب في سورية يمثل أفضل طريقة لعزل لبنان عن تصعيد أكثر مأساوية ودموية. مثاليًا، يمكن لقرار من مجلس الأمن الدولي بحظر وجود جميع المقاتلين الأجانب في سورية أن يشكل السبيل الطبيعي للتخفيف من حدة التصعيد في الصراع.

لكن من الناحية العملية، من غير الواقعي تُوَقَّع أن تمضي القوى الإقليمية أو الدولية في هذا المسار. فيما أصبح صراعاً صفرياً، باتت الرهانات عالية جداً وانخراط الحزب عميق للغاية بشكل يجعل التراجع صعباً. علاوة على ذلك، ومن منظور حزب الله، فإن التكاليف المرتفعة لتدخله في سورية لا تزال أقل من المكاسب المباشرة التي حققها: منع سقوط النظام، وإخراج الجماعات المسلحة من المناطق المحاذية للحدود اللبنانية ومنع فظاعات أسوأ ضد الشيعة. يحرص الحزب على إثبات صوابية المسار الذي اختاره باستحضار التهديد التكفيري بشكل متكرر. يبدو الحزب غير مهتم بالتنسوية، ليس فقط لأن التنسوية، في إطار الخطاب السائد في المنطقة، تعني الضعف وأن التراجع سيقوّض الرواية التي صاغها كمبرر لتدخله. على حد تعبير مسؤول إسلامي، "ليس أمام حزب الله خيار سوى العودة إلى الوطن بانتصار حاسم".<sup>118</sup>

لكن، وفي مسعاه لتحقيق مثل هذا النصر، فإن حزب الله يغذّي نفس المخاطر التي يحاول محاربتها. ونتيجة لذلك، فإن الحزب الشيعي وجمهوره باتوا أكثر هشاشة من أي وقت مضى أمام التهديدات الخارجية، وتعرّض العمق الاستراتيجي الذي اعتبره محورياً لصراعه مع إسرائيل لمخاطر متزايدة.

لم يشهد لبنان حتى الآن جميع تجليات الصراع في سورية، إلا أن النزعة الجهادية، التي لا تزال محدودة، باتت في صعود مستمر. والأجهزة الأمنية الضعيفة في لبنان، وتراجع مؤسسات الدولة والمجتمع متعدد الطوائف يجعله ضعيفاً أمام التهديدات المتعاضمة. في لبنان كما في سورية، ينبغي لأي حل ذي معنى أن يعالج، بين قضايا أخرى، الانقسام السنّي الشيعي الذي يدفعه حزب الله وأعداؤه إلى مستويات جديدة.

<sup>117</sup> انظر، على سبيل المثال، دعوة المفكر اللبناني فواز طرابلسي، *السفير*، 10 تشرين الأول/أكتوبر 2012؛ وخطاب الرئيس السابق للاتلاف الوطني السوري الموجه لنصر الله،

[www.facebook.com/ahmad.mouaz.alkhatib.alhasani/posts/637999119560485](http://www.facebook.com/ahmad.mouaz.alkhatib.alhasani/posts/637999119560485)

<sup>118</sup> مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قائد الجماعة الإسلامية (الفرع اللبناني للإخوان المسلمين)، بيروت، كانون الأول/ديسمبر

الملحق أ: خارطة الحدود اللبنانية مع سورية

